تطوّر المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني

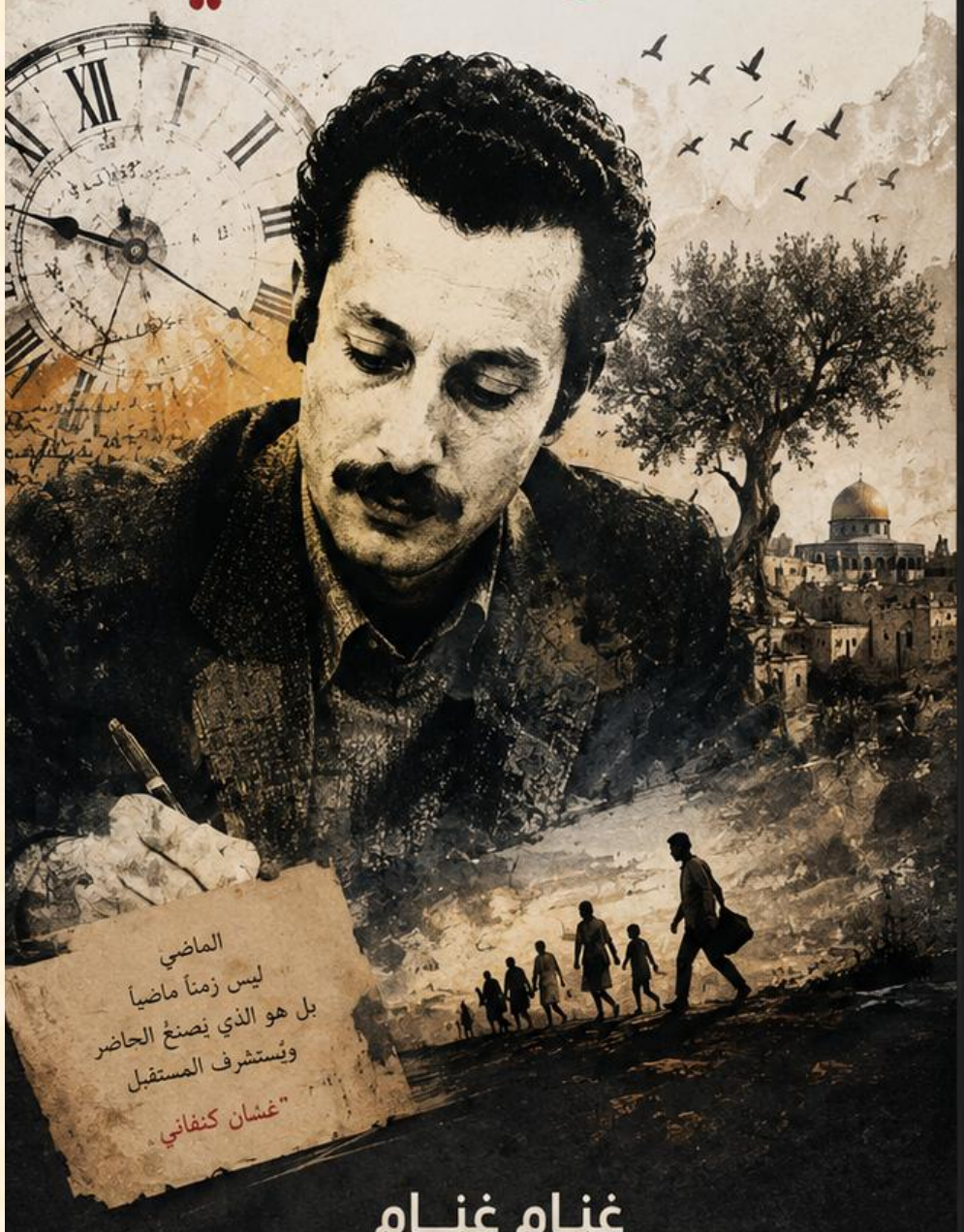

غنام غنام

الطبعة الثانية
2026

تطوّر المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني

غنام غنام

الطبعة الثانية
2026

"الزمن في أدب غسان كنفاني ليس مجرد خلفية للأحداث، بل هو بنية دلالية متحركة تتداخل فيها الذاكرة مع الحلم، ويُعاد فيها صياغة الماضي ليضيء الحاضر ويستشرف المستقبل."

دار الفجر للنشر والتوزيع

تطور المضامين الزمنية

في أدب

غسان كنفاني

(قراءة في البنية الزمنية)

غنام محمد غنام

2026

تطور المضامين الزمنية

في أدب

غسان كنفاني

(قراءة في البنية الزمنية)

قدم هذا البحث كمشروع تخرج (5449) في جامعة القدس المفتوحة–فلسطين– تخصص اللغة العربية وآدابها عام 2005 وتم تنقيحه وضبطه ونشره عام 2026 من الكاتب نفسه

- جميع الحقوق محفوظة © 2026
- تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني
- تأليف: غنام محمد غنام
- الطبعة الثانية: 2026

لا يُسمح بإعادة إنتاج هذا الكتاب، أو تخزينه في نظام استرجاع المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو بأي وسيلة كانت، إلكترونية، أو ميكانيكية، أو تصويرية، أو تسجيلية، أو غير ذلك، دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

غنام محمد غنام

قَاصٌّ يحمل حكاية قَريةٍ لمَ تُكتَبَ بعد...

وُلدَ عام (1972) في مخيم الجلزون، حامِلاً في ذاكرته حكايات – كفرَ عانا – قريته المُهجّرةِ في قضاء يافا التي لم يراها إلا في قصص الأجداد.

حاصل على الماجستير في الإدارة التربوية، والبكالوريوس في اللغة العربية، ودبلوم التربية وعلم النفس.

صَقَل موهبته عبر دورات متخصصة في الكتابة الإبداعية، ليُزاوج بين العقل الأكاديمي وروح المبدع.

يدير المدرسَة الإسلامية الثانوية للبنين (البيرة)، حيث الصفوف الدراسية ورشات تعليم وإبداع، ويعيد صياغة المحتوى التعليمي ليكون جسرًا بينَ المنهج والهوية الفلسَطينية.

كتّابه الحالي

تطوّرَ المَضامين الزمنية فيَ أدب غسّانَ كنفاني

منَ أعَماله الأدبية

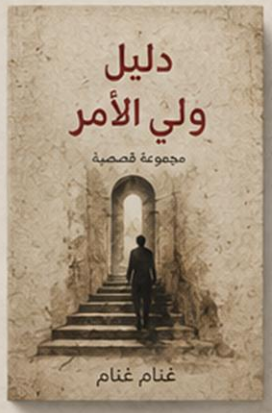

"القصة القصيرة ليست حكايةً تُروَى فحسب، بل هي ومضة وعي، وقطرة ذاكرة، تُقاوم النسيان، وتُعيد للإنسان صوته في وجه القهر."

"الأدب الفلسطيني لا يكتب للزينة، بل ليحمل وجع الأرض ونداء الإنسان، وليبني جسوراً من الحلم نحو الحرية. بينَ الألم والمقاومة، تولد الحكاية... وتَبقى الكلمة شاهدة.

فائدة:

يُعرَفُ غسّان كنفاني بعمله النضالي والأدبيّ، لكن ما لا يعرفوه كثيرون أنّه كان كذلك فنّاناً تشكيليّاً أنتج عدداً كبيراً من اللوحات والرسومات والملصقات خلال سنوات حياته القصيرة.

كانت موهبة كنفاني في الرسم قد ظهرت مبكّراً، بحسب شهادة والده، الذي توقّع أن يكون الرسم عاملاً مهمّاً في تشكيل حياته القادم.

اتخذ النضال الفلسطيني من أجل التحرّر الموقع الأهمّ في رسوم كنفاني كما في كتاباته، وظهر ذلك باكراً كما هو الأمر في عملي «العودة» (1957) و«التهجير» (1957) أيضاً. إضافة إلى رسمه لصور توضيحيّة نشرها إلى جانب قصصه وكتاباته في الصحف والمجلّات، والرسوم الّتي رافقت قصّة «القنديل الصغير» (1976)، الّتي أهداها إلى لميس، ابنة أخته. كذلك لم يكن كنفاني رئيس تحرير مجلّة «الهدف» فحسب، بل كان مصمّم غلافها وبعض رسوماتها الداخلية أيضاً، إضافة لتصميمه ملصقات ثوريّة خاصّة بـ «الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين» التي كان عضو مكتبها السياسي.

تشير مصادر إلى أن كنفاني رسم خلال حياته (36) لوحة زيتيّة، إلّا أنّ ما وصل منها أقلّ من ذلك بكثير.

فهرس المحتويات

المحتــوى	صفحة
الإهداء	1
مقدمة الطبعة الثانية	2
المقدمة	4
مفهوم الزمن في السرد الأدبي	6
أنواع الزمن في العمل الأدبي	8
أنماط البنية الزمنية في الرواية	10
تقنيات إدارة الزمن عند غسان كنفاني	11
الفصل الأول: سيرة غسان كنفاني وأثرها في تشكيل رؤيته الزمنية	13
الفصل الثاني: مدخل إلى عالم غسان كنفاني	19
الفصل الثالث: مراحل أدب غسان كنفاني الزمنية	26
المرحلة الأولى: الركود والاستسلام (1956-1963)	27
المرحلة الثانية: الاحتجاج والاستنكار (1963-1967)	33
المرحلة الثالثة: الانبعاث والثورة (1967-1972)	42
خلاصة المرحلة الثالثة ورؤية تركيبية بين المراحل	48
الخاتمة	51
خلاصة تطور المضامين الزمنية في المراحل الثلاث	54
خلاصة نهائية	58
التوصيات	59
الملحق: نصوص مختارة من أدب غسان كنفاني	63
قائمة المصادر والمراجع	69

الإهداء

إلى فلسطين التاريخية أولاً وأخيراً

التي جعلت من الزمن حكاية لا تنتهي، ومن الذاكرة وطناً يقيم في القلوب.

إلى روح الأديب والمناضل غسان كنفاني، الذي حوّل الكلمة إلى موقف، والأدب إلى شهادة، والذاكرة إلى فعل مقاومة.

إلى أسرتي الكريمة التي كانت السند والدافع في رحلة البحث والكتابة.

إلى المعلمين والباحثين والطلبة والمهتمين بالأدب الفلسطيني

أهدي هذا الجهد المتواضع

راجياً أن يسهم في إضاءة جانب من التجربة الإبداعية لغسان كنفاني، وأن يفتح آفاقاً جديدة للبحث في أدبه الخالد.

غنام غنام

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

أما بعد،

فهذا كتاب "تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني" الذي بين أيديكم، وهو في طبعته الثانية المنقحة والمزيدة، بعد أن صدرت طبعته الأولى قبل أكثر من عقدين من الزمن، حيث قُدّم البحث أصلاً كمشروع تخرج لنيل درجة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها من جامعة القدس المفتوحة – فلسطين عام 2005.

واليوم، وبعد مرور هذه السنوات، أقدم هذه الطبعة الثانية بعد أن قمت بتنقيحها وضبطها وإثرائها بالعديد من الإضافات النوعية التي رأيتها ضرورية، انطلاقاً من قناعتي الراسخة بأن أعمال غسان كنفاني – رحمه الله – تظل بحاجة دائمة إلى قراءة متجددة، وأن أدبه الخالد يفيض بالدلالات التي تستدعي إعادة النظر والكشف.

فمنذ أن قمت بإعداد هذه الدراسة في بدايات الألفية الثالثة، وأنا أتابع باهتمام ما يُنشر حول أدب غسان كنفاني من دراسات نقدية، وما يُكتب عنه من تحليلات في مختلف أنحاء العالم العربي والعالمي. وقد لاحظت أن اهتماماً متزايداً ينصب على الجانب الزمني في أدبه، غير أن الدراسات التي تناولت الموضوع بشكل منهجي متكامل كانت لا تزال محدودة. وهذا ما شجعني على العودة إلى هذا البحث، وتطويره بما يتناسب مع المستجدات النقدية، وبما يليق بمكانة غسان كنفاني في الأدب العربي والفلسطيني.

أما أهم الإضافات التي حفلت بها هذه الطبعة الثانية فهي:

أولاً: إطار نظري متكامل: يقدم قراءة في مفاهيم الزمن السردي عند أبرز المنظرين الغربيين والعرب، وعلى رأسهم جيرار جينيت، وبول ريكور، وميخائيل باختين، وشلوميث ريمون–كينان، وسيد حامد الناصري، وذلك لتأصيل المفاهيم النقدية المستخدمة في التحليل.

ثانياً: إثراء التحليل: النقدي بإضافة مقتطفات من نصوص غسان كنفاني القصصية والروائية، بما يدعم التحليل ويقربه إلى ذهن القارئ، ويجعله على تماس مباشر مع لغة غسان وأسلوبه الفريد.

ثالثاً: إضافة آراء ونقاشات نقاد جدد: لم تكن متاحة أو مطروحة في الفترة التي أُعد فيها البحث أصلاً، مما أضفى على الدراسة عمقاً إضافياً.

رابعاً: تطوير الفصول كافة: خاصة الفصل الثالث الذي يتناول مراحل أدب غسان الزمنية، وإثراء الخاتمة بخلاصات تركيبية، وترابطات بين المراحل الثلاث.

خامساً: إضافة التوصيات: التي تمثل خارطة طريق للباحثين الراغبين في مواصلة الدراسة في هذا الحقل، وأيضاً الملحق الذي يحوي نصوصاً مختارة من أدب غسان، ليكون القارئ على مقربة من اللغة التي نحللها، ويجنبه عناء البحث عن النصوص في مصادرها الأصلية.

سادساً: مراجعة وتحديث المصادر والمراجع: وفق أحدث طرق التوثيق الأكاديمية، لإضفاء المصداقية العلمية اللازمة.

لقد حرصت في هذه الطبعة على ألا أخرج عن جوهر البحث الأصلي، فالتقسيم الثلاثي للمراحل الزمنية (الركود والاستسلام، الاحتجاج والاستنكار، الانبعاث والثورة) لا يزال صالحاً ومقنعاً. ولكن ما أضفته كان بهدف التعميق والربط والتوسع، مع الحفاظ على روح البحث الأول وطابعه المميز.

إن ما دفعني إلى إعادة النظر في هذا البحث ونشره مجدداً على شكل كتاب، هو إيماني العميق بأن أدب غسان كنفاني لا يزال حياً، وأن كل جيل يقرأه يكتشف فيه أبعاداً لم يكتشفها من سبقه. ولعل هذا الكتاب أن يكون عوناً للباحثين، وطلبة الدراسات العليا، والمهتمين بالأدب الفلسطيني والنقد العربي، على حد سواء.

وأود أن أغتنم هذه المناسبة لأتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من أسهم في إخراج هذا العمل إلى النور، كما أخص بالشكر كل دارس وناقد وباحث كتب عن غسان كنفاني، وأضاف إلى رصيده المعرفي والنقدي، وأخص بالذكر النقاد الذين استشهدت بآرائهم في هذا البحث، والذين أغنوا التحليل بجهودهم النقدية المتميزة.

وفي الختام، أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم والباحثين، وأن يكون إضافة متواضعة تخدم أدبنا الفلسطيني والعربي، وتكشف عن جوانب من عبقرية غسان كنفاني الإبداعية التي لا تنضب.

إن كان التوفيق حليفي، فمن الله وحده، وإن كانت الزلة فمني ومن الشيطان.

والله من وراء القصد.

غنام محمد غنام

فلسطين – 2026

المقدمة

غسان كنفاني كاتب عاش القضية الفلسطينية بكل همومها، وكتب عنها ومات في سبيلها، فهو صاحب مشروع نضالي وثقافي. أكد أن على جميع فئات الشعب رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخاً أن يخوضوه، وأن يعبروا عن انتمائهم ووفائهم للوطن بطريقة بعيدة عن الرقابة والخوف من العدو، فهو يريد منهم أن يفعلوا شيئاً من أجل أرضهم وقضيتهم.

يقول يوسف إدريس: "إن غسان كنفاني أول كاتب في كل تاريخ أدبنا العربي يعيش قضية بلاده إلى حد الشهادة، لقد كانت قضية فلسطين موضوع حياة غسان، وموضوع كتابات غسان، وموضوع رواياته وفعاليات قصصه القصيرة، وكانت أيضاً موضوع حياته وموضوع موته".

فقد كان غسان من الذين أثْرُوا النضال الفلسطيني بالأدب، وترجموا القول إلى فعل وعمل حقيقي، وحولوا النظريات إلى ممارسات وأفعال على أرض الواقع.

وفي ذلك يضيف داود إبراهيم: "فبالرغم من أنه مضى في ذروة الشباب حيث أنه لم يأخذ عمر الزمن إلا ستة وثلاثين عاماً، إلا أنه كان غزير الإنتاج، حيث ترك لتاريخ الأدب الفلسطيني إرثاً لم يصنعه غيره ممن أحنى الدهر قاماتهم وهم قابضون على أقلامهم، أكان هاجس الموت يطارده؟ أم كان في مباراة مع الزمن؟"

نصوص تشي بما سنقرأ

في رواية "عائد إلى حيفا"، يتأمل سعيد وهو يعود إلى بيته بعد عشرين عاماً من الغياب:

"سألت: ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة. أجل ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على الجدار؟ المزلاج النحاسي؟ شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟"

وفي اللحظة التي يكتشف فيها أن ابنه الذي تركه رضيعاً قد أصبح جندياً في جيش الاحتلال، يدرك حقيقة أعمق، فيخاطب زوجته قائلاً: "لقد أخطأنا حين اعتقدنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده المستقبل".

وفي نهاية الرواية، بعد أن يرى ما رأى، يدير محرك سيارته صامتاً حتى يصل إلى مشارف رام الله، عندها فقط ينظر إلى زوجته ويقول: "أرجو أن يكون خالد قد ذهب... أثناء غيابنا".

وفي رواية "أم سعد"، التي كُتبت بعد هزيمة 1967، تظهر شخصية الأم التي تدرك أن النبتة لا تنمو إلا بالزمان: "قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً".

إنها تدرك أن الثورة مثل النبتة، تحتاج إلى وقت لتنمو. وفي حوارها مع الراوي، تقول أم سعد ببساطة: "كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب! وها قد مرت 20 سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟"

وفي قصة "أرض البرتقال الحزين"، يصف غسان لحظة الخروج من حيفا: "وبدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب... نزل أبوك من جانب السائق، ومد كفه فحمل برتقالة منها... أخذ ينظر إليها بصمت... ثم انفجر يبكي كطفل بائس"، ويحكي عن فلاح كان يزرع البرتقال ويقول: "إنه يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء". فالبرتقال هنا رمز للوطن والذاكرة والجذور التي تموت بغياب أصحابها.

بعد الاطلاع على هذا الإنتاج الغزير، أحسست بأن غسان كان مأسوراً بالزمن الماضي، وخاصة في الفترة ما بين عامي (1948-1967م)، وهي فترة النكبة والنكسة. لذلك نجد في كتاباته الأولى تركيزاً على التشرد والنكبة والضياع والذل الذي عاشه الفلسطيني جراء إخراجه من وطنه وأرضه، وهذا تمثل في مجموعة: "أرض البرتقال الحزين" و"موت سرير رقم 12" و"عالم ليس لنا". بينما جاءت كتاباته المتأخرة لتحث الفلسطيني على الثورة وتحضه على استرجاع وطنه، وتمثلت في رواية: "رجال في الشمس" وما تلاها.

وسأتحدث عن الزمن في أدب غسان كنفاني القصصي والروائي مقسماً إلى ثلاث مراحل كالتالي:

- المرحلة الأولى: الركود والاستسلام، ومنها قصص: "شيء لا يذهب"، "منتصف أيار"، "كعك على الرصيف"، "الأخضر والأحمر".
- المرحلة الثانية: الاحتجاج والاستنكار، ومنها رواية: "رجال في الشمس" و "ما تبقى لكم".
- المرحلة الثالثة: الانبعاث والثورة، وفيها رواية: "أم سعد" ومجموعة: "عن الرجال والبنادق".

يعتمد هذا الكتاب على المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة بالإطار النظري الذي وضعه كل من "جيرار جينيت" في مفهومي الاسترجاع والاستباق، و"بول ريكور" في جدلية الزمن، و"ميخائيل باختين" في مفهوم الكرونوتوب. وسيتم تحليل البنى الزمنية في النصوص المختارة من خلال تتبع تطورها عبر المراحل الثلاث، ورصد دلالات الماضي والحاضر والمستقبل، وكيف تحول الزَّمن من عدو إلى حليف في مسيرة النضال الفلسطيني.

مفهوم الزمن في السرد الأدبي

يمثل الزمن أحد المقولات النقدية الأساسية في دراسة العمل الأدبي، إذ لم يعد ينظر إليه باعتباره مجرد إطار زمنيٍّ تَجري ضمنه الأحداث، إنما تحول إلى عنصر بنائيٍّ فاعل يُشكِّل الرؤية الفنية للكاتب، ويعكس علاقة الشخصيات بواقعها وتاريخها ومستقبلها. وقد حظي الزمن السردي باهتمام بالغ في الدراسات النقدية الحديثة، خاصة مع بروز المناهج البنيوية والسيميائية التي كشفت عن تعقيد البُنى الزمنية في النصوص الأدبية، وأسهمت في تقديم أدوات تحليلية دقيقة، لدراسة العلاقات الزمنية داخل العمل السردي.

وتتعدد مستويات الزمن في العمل الروائي والقصصي، ويمكن حصرها في المستويات التالية:

أولاً: زمن الحكاية:

وهو الزمن الفعلي للأحداث كما تحدث في الواقع، وفق تسلسل زمني طبيعي، مثل السنوات العشر التي تلت النكبة في رواية "رجال في الشمس".

ثانياً: زمن السرد:

وهو الزمن الذي يستغرقه النص في سرد الأحداث، أي الترتيب الذي يعرض به الكاتب الأحداث، وقد يختلف عن الترتيب الطبيعي لها، كما نلحظ في التداخل بين الحاضر والماضي في قصة "شيء لا يذهب".

ثالثاً: زمن القراءة:

وهو الزمن الذي يستغرقه القارئ في قراءة النص، وقد وظف غسان هذه التقنية في قصة "شيء لا يذهب" حين جعل الرحلة في القطار تستغرق ساعات محدودة تتناسب مع زمن القراءة الفعلي.

ومما يعزز حضور هذه الأزمنة المتعددة في أدب غسان، تلك الجملة التي تختزل وعيه العميق بالمفارقة الزمنية: "إنه ثمن باهظ بلا شك أن يشتري الإنسان حياته اليومية، بموت يومي". فالموت اليومي هنا ليس موتاً بيولوجياً. هو تحول الحياة إلى زمن دائري مفرغ من المعنى، وهذا ما سيتجلى في تحليلنا لنصوصه.

العلاقات الزمنية الأساسية في السرد

يعد الناقد الفرنسي "جيرار جينيت" من أهم المنظرين للزمن السردي، إذ حدد في كتابه "خطاب الحكاية" (Figures III، 1972) ثلاث علاقات زمنية أساسية بين زمن الحكاية وزمن السرد، يمكن الاستفادة منها في تحليل النصوص الأدبية:

أولاً: النظام:

ويعني ترتيب الأحداث في النص السردي، وما إذا كان يتوافق مع الترتيب الطبيعي أم يخالفه، ويتضمن:

- الاسترجاع: العودة إلى الوراء لسرد أحداث سابقة. وقد وظف غسان هذه التقنية على نطاق واسع، كما في عودة أبي قيس في "رجال في الشمس" إلى ذكرياته في قريته قبل النكبة، حيث يصف غسان لحظة استرجاعه للذاكرة: "كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج

من الحمام... الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيباً.. الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً"

- الاستباق: التقدم إلى المستقبل للحديث عن أحداث ستحدث. وقد تجلّى ذلك في تطلع الشخصيات في "رجال في الشمس" إلى مستقبلهم في الكويت، وفي أحلام مروان بالمستقبل الذي يطمح إلى تحقيقه.
- السرد المتزامن: سرد أحداث متزامنة تحدث في وقت واحد، وهي تقنية أقل ظهوراً في أدب غسان.

ثانياً: المدة:

وتعني العلاقة بين زمن الحكاية وزمن السرد، أي السرعة السردية، وتشمل:

- التلخيص: تكثيف زمن طويل في سرد قصير، كما فعل غسان في تلخيصه لسنوات النكبة في بضع صفحات.
- المشهد: مساواة زمن السّرد بزمن الحكاية، ويتم ذلك عادة عبر الحوار، كما في حوارات الشخصيات في رواية "أم سعد" التي تعكس زمناً متكافئاً، ومنها حوارها المكثف عن معنى الحبس: "الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس.. أعمارنا حبس"
- الوقفة الوصفية: توقف الزمن السردي للوصف، حيث ينشغل السرد بالوصف دون تقدم في الأحداث، كما في وصف غسان للمخيمات والمناظر الطبيعية.
- الإيجاز: حذف فترة زمنية كاملة، وهي تقنية وظفها غسان للإيحاء بالركود والجمود، كما في حذف سنوات الانتظار الطويلة في بعض نصوصه.

ثالثاً: التواتر:

ويعني العلاقة بين عدد مرات وقوع الحدث وعدد مرات سرده، ويتضمن:

- السرد المفرد: حدث واحد يُسرد مرة واحدة، وهو الأسلوب السائد في السرد التقليدي.
- السرد المتكرر: حدث واحد يُسرد عدة مرات من وجهات نظر مختلفة، وهو أسلوب لجأ إليه غسان في بعض نصوصه لتوكيد دلالة معينة.
- السرد المكرر: حدث متكرر يُسرد مرة واحدة، كما في وصف غسان للحياة اليومية المتكررة في المخيمات.

أنواع الزمن في العمل الأدبي

انطلاقاً من الدراسات النقدية الحديثة، يمكن تمييز عدة أنواع من الزمن في العمل الأدبي، ولكل منها دلالاته وخصائصه:

أولاً: الزمن التاريخي

هو الزمن المرتبط بالأحداث السياسية والاجتماعية الكبرى التي تشكل خلفية النص. وفي أدب غسان كنفاني يتجسد هذا الزمن في ثلاث محطات رئيسية:

- النكبة (1948).
- النكسة (1967)
- وانطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة (1965).

ولقد ارتبط تطوّر المضامين الزمنية في أعمال غسان ارتباطاً وثيقاً بهذه المحطات التاريخية، بحيث يمكن القول إن الزمن التاريخي هو المحرك الأساسي للتحولات الزمنية في نصوصه.

وفي رواية "عائد إلى حيفا"، يطرح غسان سؤال الوطن الذي يتجاوز حدود الزمن التاريخي: "سألت: ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة. أجل ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على الجدار؟ المزلاج النحاسي؟ شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟"

ثم يخلص إلى رؤية زمنية جوهرية: "لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل".

ثانياً: الزمن النفسي

هو الزمن الداخلي للشخصيات المرتبط بالذاكرة، والندم والأمل، والخوف والتطلعات. ويختلف هذا الزمن عن الزمن الموضوعي، إذ قد تطول لحظة نفسية في السرد بينما لا تستغرق في الواقع سوى ثوانٍ.

وقد برع غسان في تصوير هذا الزمن من خلال "المونولوج" الداخلي" و"تيار الوعي"، كما في زمن الذاكرة في "شيء لا يذهب"، وزمن الانتظار المرهق في "كعك على الرصيف"، وزمن الندم المتواصل في "منتصف أيار".

وفي رواية "ما تبقى لكم"، يتجلى الزمن النفسي في شعور الشخصية بالغربة والوحدة: "إن الصمت لا يكون بلا صوت وإلا لما كان ولما صار بالوسع أن يحس على هذه الصورة الفريدة، المفعمة بالغربة والوحشة والمجهول".

ثالثاً: الزمن الرمزي

هو الزمن الذي يحمل دلالات مجازية تتجاوز دلالته الحرفية، إذ تتحول عناصر الزمن المادية إلى رموز تحمل معاني إضافية. وقد أبدع غسان في توظيف هذا النوع من الزمن، فجاءت الساعة في "ما تبقى لكم" رمزاً للنعش وسجن الماضي، حيث يصفها الراوي: "تدق... تدق... داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير". وجاء الخزان في "رجال في الشمس" رمزاً للقبر والموت البطيء، وجاءت الدّالية في "أم سعد" رمزاً للانبعاث والنماء، حيث تقول أم سعد: "قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً"، وجاء المفتاح في "عن الرجال والبنادق" رمزاً للهوية والجذور والاستمرارية.

رابعاً: الزمن الاجتماعي

هو الزمن المرتبط بالعلاقات الطبقية والاقتصادية، وبممارسات الإنسان اليومية في إطار المجتمع. وفي أدب غسان يتجسد هذا الزمن في علاقة الفلسطيني بالعمل والكسب في "رجال في الشمس"، وفي معاناة الفقر والجوع في "كعك على الرصيف"، وفي التحولات الاجتماعية التي رافقت الثورة في "أم سعد"، حيث تجسّد أم سعد الوعي الطبقي بقولها: "هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلّف وفلسطين تأخذ".

أنماط البنية الزمنية في الرواية

تتعدد أنماط البنية الزمنيّة في الأعمال السردية، ويمكن تصنيفها على النحو التالي:

أولاً: الزمن الخطي

ويعني تسلسل الأحداث وفق الترتيب الطبيعي: (ماضٍ ← حاضر ← مستقبل)، وهو نمط نادر الاستخدام في أدب غسان كنفاني، إذ نادراً ما التزم بالتسلسل الزمني التقليدي.

ثانياً: الزمن الدائري

وفيه تعيد الأحداث نفسها، وكأن الزمن يدور في حلقة مفرغة، فلا يتقدم ولا يتطوّر. وقد صوّر غسان هذا النمط في مرحلة الركود والاستسلام، حيث كان الفلسطيني يعيد تجربة الألم نفسه يومياً، دون أفق للخلاص. وهذا ما تعبّر عنه أم سعد في حوارها عن الأعوام العشرين التي مضت: "كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب! وها قد مرت 20 سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟"

ثالثاً: الزمن المتشظي

وفيه يتقطع الزمن ويتداخل الماضي بالحاضر بالمستقبل، وتتشظى البنية الزمنية تشظياً يعكس تشظي الوعي والوجود. وقد وظّف غسان هذا النمط بكثافة في رواية "ما تبقى لكم" حيث تيارات الوعي المتداخلة التي تجعل الزمن يتشظى بين الماضي والحاضر.

ويأتي وصف الزمن في هذه الرواية معبراً عن هذا التشظي: "ما تبقى لها. ما تبقى لكُم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الموت. حساب الخسارة. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبّارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه، كله مؤجل كله مؤجل"

رابعاً: الزمن المفتوح

هو الزمن الذي تنتهي أحداثه بنهايات مفتوحة تحتمل عدة احتمالات مستقبلية. ويتجلى هذا النمط في نهاية "رجال في الشمس" بالتساؤل المصيري: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟"، وهو سؤال يفتح آفاقاً جديدة للوعي والفعل، بدلاً من إغلاق الدائرة.

خامساً: الزمن المغلق

هو الزمن الذي تنتهي أحداثه بنهايات محسومة لا مجال للخروج منها، كما في موت الشخصيات الثلاث في الخزان في "رجال في الشمس"، وكأن الزمن أغلق عليهم أبوابه.

تقنيات إدارة الزمن عند غسان كنفاني

بناءً على الدراسة المتأنية لأعمال غسان كنفاني القصصية والروائية، يمكن تحديد أهم التقنيات الزمنية التي اعتمد عليها في بناء نصوصه في الجدول التالي:

المونولوج الداخلي:

- تيار الوعي: الذي يسمح بالتنقل الحر بين الأزمنة، مثل: أبي قيس في "رجال في الشمس"، وحامد في "ما تبقى لكم" ومن النصوص: "كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام... الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً".
- استرجاع الذاكرة: العودة إلى الماضي عبر التذكر واستحضار الذكريات في قصة "شيء لا يذهب" برمتها مبنية على استرجاع ذاكرة الراوي حيث يستعيد البطل ذكرياته مع ليلى وحيفا في رحلة القطار.
- المفارقة الزمنية: التناقض بين الزمن الفعلي والزمن النفسي. الساعة التي تدق بانتظام لكن الزمن النفسي متوقف في "ما تبقى لكم" حيث يقول: "تدق... تدق... داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير".
- الرمز الزمني: استخدام أشياء مادية تحمل دلالات زمنية عميقة. الساعة، الخزان، الدالية، المفتاح، الفأس. يقول: "قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً"
- الحذف الزمني: حذف فترات زمنية كاملة للإيحاء بالركود أو التعمية، مثل حذف سنوات الانتظار الطويلة في العديد من النصوص. تمتد في "عائد إلى حيفا" عشرون سنة من الغياب تُختزل في ساعات العودة.
- تعدد الأزمنة: التداخل بين الماضي والحاضر والمستقبل في النص نفسه. التداخل الزمني الواضح في معظم قصص وروايات غسان. "لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل"

انطلاقاً من المفاهيم النظرية السابقة، يعتمد هذا الكتاب في تحليله للمضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني على المحاور التحليلية التالية:

المحور الأول: بنية الزمن السردي

ويتناول الكيفية التي ينظم بها غسان الأحداث زمنياً، وهل يعتمد على التَّسلسل الخطي أم التداخل الزّمني، وما دور الاسترجاع والاستباق في نصوصه، وكيف يوظف تقنيات المدة والتواتر. ويمكن تطبيق ذلك على ما ورد في رواية "ما تبقى لكم" حيث تحضر الساعة كشخصية رئيسية: "لقد جعل غسان كنفاني من الساعة واحدة من شخصياته الرئيسية، فالساعة تأخذ مساحة كبيرة لديه ويشبهها بالنعش، فالوقت وتساقطه يمثل الموت القادم والمتحرك بسرعة هائلة من كل الجهات، والساعة هي الزمن المسروق والضائع من حياة الفلسطينيين".

المحور الثاني: دلالات الزمن

ويتناول ما يمثله الماضي في كل مرحلة من مراحل إنتاج غسان (هل هو حنين أم ندم أم جذور؟)، وما يمثله الحاضر (ذل أم انتظار أم نضال؟)، وما يمثله المستقبل (منفي أم مؤجل أم ممكن؟)، وكيف تتغير هذه الدلالات بتغير المراحل الزمنية.

وفي هذا السياق، تطرح رواية "عائد إلى حيفا" سؤالاً جوهرياً حول دلالة الماضي: "كنت أفتش عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم".

المحور الثالث: العلاقة بين الزمن والمكان

ويتناول كيفية ارتباط الزمن بالمكان في أدب غسان، وكيف يؤثر المكان (فلسطين، المخيم، الصحراء، الكويت، بيروت) في البنية الزمنية وفي دلالات الزمن، إذ يُلاحَظ أن كل مكان يحمل زمناً خاصاً به. ويصف غسان هذه العلاقة في "رجال في الشمس": "الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض، وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون"

المحور الرابع: تطور الزمن عبر المراحل الثلاث

ويتناول مسار تطور الزمن من المرحلة الأولى (الركود والاستسلام)، إلى المرحلة الثانية (الاحتجاج والاستنكار)، إلى المرحلة الثالثة (الانبعاث والثورة)، وما العلاقة بين هذا التطور في النصوص وتطور القضية الفلسطينية في الواقع التاريخي.

لتحليل كل نص من النصوص المختارة، التوضيح التالي:

- النظام الزمني: هل النص خطي أم متداخل؟ كيف يوظف الاسترجاع والاستباق؟
- المدة الزمنية: هل ثمة تلخيص أم مشاهد مطولة؟ أين تتوقف السرعة السردية؟
- التواتر: هل يتكرر حدث ما؟ وكيف يؤثر التكرار في بناء المعنى؟
- الزمن النفسي: كيف ترتبط الشخصيات بالماضي والحاضر والمستقبل نفسياً؟
- الزمن الرمزي: هل ثمة رموز تحمل دلالات زمنية؟ وما دلالاتها؟
- دلالة الزمن: ماذا يقول النص عن الزمن نفسه؟ هل الزمن عدو أم حليف؟

الفصل الأول:

سيرة غسان كنفاني
وأثرها في تشكيل رؤيته الزمنية

تمهيد

لا يمكن فهم تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني بمعزل عن مسيرته الحياتية، ذلك أن سيرته الذاتية تحمل في طياتها ملامح التحولات الزمنية التي انعكست في كتاباته. فحياته منذ الولادة حتى الاستشهاد، كانت مرآة لتاريخ القضية الفلسطينية نفسها، بما فيه من نكبة ونكسة وانبعاث. ولذلك يقتضي الإلمام بالمحطات الأساسية في حياة غسان، مع التركيز على الأحداث التي شكلت وعيه الزمني، وأثرت في نظرته إلى الماضي والحاضر والمستقبل.

يقول غسان في حديث له عن علاقة السيرة بالكتابة: "إن كل قصة كتبتها ترتبط بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وبخيط دقيق أو متين بتجاربي الشخصية في الحياة". وهذا الاعتراف يضعنا أمام حقيقة منهجية: أن دراسة الزمن في أدب غسان لا تنفصل عن دراسة الزمن في حياته، وأن التحولات الزمنية في نصوصه هي انعكاس لتحولات زمنية عاشها بنفسه.

أولاً: النشأة والهجرة: ولادة الوعي بالزمن المأسور

وُلِدَ غسان كنفاني في مدينة عكا بفلسطين عام 1936م، في أسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، إذ كان والده محامياً. غير أن طفولته لم تكتمل، إذ لم يكن قد أتم عامه الثاني عشر حين زحفت القوات الصهيونية على عكا في آذار عام 1948م، لتكون هذه اللحظة الفاصلة في حياته. فقد اضطرت أسرته كما اضطرت آلاف الأسر الفلسطينية الأخرى، إلى مغادرة أرض الوطن إلى المنفى.

ولم تكن هذه الهجرة مجرد انتقال مكاني. كانت نقلة نوعية في البنية الاجتماعية للأسرة، وتحولاً جذرياً في علاقتها بالزمن. فترك فلسطين يعني فقدان المكان وفقدان زمن كامل، زمن الأمان والاستقرار، ليحل محلّه زمن التشرد والانتظار. وقد أدرك غسان باكراً هذه المفارقة الزمنية، إذ انتقلت أسرته من طبقة الميسورين إلى طبقة "البروليتاريا" الرَّثة، كما يصف هو نفسه، واضطر هو وإخوته إلى القيام بأشغال مختلفة هنا وهناك، لكي يعيلوا الأسرة ويكملوا تعليمهم. فعمل غسان في سن مبكرة مدرّساً للأطفال الصغار بإحدى مدارس وكالة الغوث في مخيم من المخيمات الفلسطينية.

ويشير الناقد داود إبراهيم إلى أن هذه التجربة المبكرة كانت حاسمة في تشكيل وعي غسان، إذ جعلته يختبر معنى الزمن المفقود، زمن الوطن الذي لم يعد، وزمن المنفى الذي امتد بثقله على كل لحظة من لحظات حياته. إن الانقطاع الذي حدث في عام 1948م كان انقطاعاً زمنياً، إذ وجد الفلسطيني نفسه منفصلاً عن ماضيه، معلقاً في حاضر لا يرضيه، متطلعاً إلى مستقبل غامض. وهذه العلاقة المتوترة مع الزمن ستصبح المحور الأساسي في كتابات غسان، كما سنرى في تحليل نصوصه.

وفي قصة "أرض البرتقال الحزين"، يصف غسان هذه اللحظة الفارقة التي انكسر فيها زمن الطفولة، وكيف تحول البرتقال من رمز للحياة إلى رمز للفقد: "وبدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب... نزل أبوك من جانب السائق، ومد كفه فحمل برتقالة منها... أخذ ينظر إليها بصمت... ثم انفجر يبكي كطفل بائس".

ويحكي عن فلاح كان يزرع البرتقال ويقول: "إنه يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء". فالبرتقال هنا رمز للوطن والذاكرة والجذور التي تموت بغياب أصحابها، وهذا الرمز سيتكرر في أعمال غسان كدلالة على الزمن المفقود.

ثانياً: المنفى الأول: الكويت واكتشاف زمن الغربة

في المنفى تعلّم غسان العلاقة الوثيقة بين القضية الوطنية والقضية الطبقية، وهي علاقة ستنعكس بوضوح في أعماله الأدبية، حيث سيجعل من البطل الفلسطيني نموذجاً للإنسان المطحون بين الاحتلال والاستغلال الطبقي. وفي بداية الخمسينات التقى غسان بالدكتور جورج حبش، وانضم في فترة تالية إلى حركة "القوميين العرب"، وهي حركة مناهضة للاستعمار، وكانت هذه الخطوة بداية وعيه السياسي المنظّم.

وفي عام 1956م، نشر غسان قصته الأولى "شمس جديدة" في جريدة "الرأي" الناطقة باسم الحركة، وهي قصة تدور أحداثها حول طفل صغير من غزة. وهذه القصة المبكرة تشير إلى بداية اهتمام غسان بزمن الطفولة، وزمن النكبة كما يعيشه الأطفال، وهو زمن يحمل وعياً مبكراً بالضياع والألم.

وفي العام نفسه سافر غسان إلى الكويت ليعمل مدرساً للرسم والألعاب الرياضية. وهناك عرف المنفى في شكل جديد، كما يقول: "وحشة واغتراب، وعطش المرء النفسي في الصحراء". وقد كانت تجربة الكويت مميزة في تشكيل رؤيته الزمنية، إذ إنها جعلته يختبر زمن الغربة بمعناه الجديد، ليس كغربة مؤقتة، بل كحياة تمتد في صحراء قاحلة لا تحمل وعداً بالعودة.

وقد اختزن غسان الصور والمعاني المرتبطة بشعبه في هذا المنفى، ليقدمها فيما بعد في أعمال أدبية، خاصة في رواية "رجال في الشمس" التي صوّرت رحلة الفلسطينيين الباحثين عن لقمة العيش في الخليج.

ويصف غسان في هذه الرواية زمن الغربة الذي يفرض إيقاعه القاسي على حياة الشخصيات: "الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض، وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون".

وفي مشهد آخر يعكس الضياع الزمني الذي يعيشه الفلسطيني في المنفى، يصف شعور الشخصيات وهم يغوصون في صهريج الماء المقفل وسط الصحراء الملتهبة، وكأنهم يغوصون في "المِقلاة".

ثالثاً: بيروت: زمن النضال والإبداع المتدفق

في عام 1960م عاد غسان من الكويت إلى بيروت، ليبدأ مرحلة جديدة في حياته، هي مرحلة الصحافة والنضال والإبداع المتدفق. عمل غسان محرراً في جريدة "الحرية" الناطقة باسم حركة القوميين العرب، ثم أصبح عضواً بارزاً في "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" منذ ظهورها، وتبنى المنهج الماركسي، وساهم في كتابة وصياغة برامجها.

وتميزت هذه الفترة بإنتاج أدبي غزير، إذ كتب غسان معظم أعماله الروائية والقصصية في بيروت بين عامي 1960 و1972. وهذا التدفق الإبداعي كان تعبيراً عن إحساس غسان بالزمن المهدّد، وكأنه في مباراة مع الزمن، يملي عليه الموت والحياة في آن واحد.

وكما يصف داود إبراهيم: "بالرغم من أنه مضى في ذروة الشباب حيث أنه لم يأخذ عمر الزمن إلا ستة وثلاثين عاماً، إلا أنه كان غزير الإنتاج، حيث ترك لتاريخ الأدب الفلسطيني إرثاً لم يصنعه غيره ممن أحنى الدهر قاماتهم وهم قابضون على أقلامهم".

وقد تزوج غسان من مدرسة دانمركية اشتراكية تدعى "آني هوفر"، وأنجب طفله فايز وطفلته ليلى. ونمت صداقاته وترسّخت علاقاته الإنسانية، واستمر في استيعابه لواقعه الفلسطيني العربي، وفي مواكبة التحولات السياسية التي شهدتها القضية الفلسطينية، من هزيمة 1967 إلى انطلاق الثورة المسلحة.

وفي هذه الفترة بالتحديد، كتب غسان روايته "ما تبقى لكم" حيث جسّد زمن الانتظار والجمود الذي يعيشه الفلسطينيون في المنفى، من خلال رمز الساعة التي تدق في غرفة النوم كالنعش: "تدق... تدق... داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير".

هذه الساعة التي جعلها غسان شخصية رئيسية في الرواية تعكس شعوره العميق بأن الزمن في حياة الفلسطينيين تحول إلى وعاء للانتظار والموت البطيء.

رابعاً: الاستشهاد: موت يخلق زمناً جديداً

في صباح الثامن من يوليو 1972م، خرج غسان من بيته مع ابنة أخته "لميس"، وركب سيارته. وحين أدار المحرك انفجرت السيارة، حيث كان المجرمون قد وضعوا فيها خمسة كيلوغرامات من الديناميت، بالإضافة إلى قنبلة من البلاستيك، فقُتل وهو في السادسة والثلاثين من عمره.

لقد كان استشهاد غسان في سياق هذا الكتاب لحظة زمنية فارقة، إذ حوّل حياته إلى سيرة، وأعماله إلى تراث، وزمنه الشخصي إلى زمن تاريخي.

وكما قال يوسف إدريس: "إن غسان كنفاني أول كاتب في كل تاريخ أدبنا العربي يعيش قضية بلاده إلى حد الشهادة". وقد جعل موته من زمن حياته زمناً ممتداً في وعي الأجيال، وتأكيداً على أن الموت في سبيل القضية بداية لزمن جديد من الحضور والتأثير.

وفي آخر رسالة له وهو يصارع المرض، كتب غسان كلمات تعكس وعيه العميق بعلاقة الزمن بالحياة والموت: "المرض يشتد علي، وأشعر دائماً بالإعياء والتعب، ولكني لا أذهب للفراش، هناك شعور خفي بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبداً".

هذه الكلمات التي كتبها قبل أيام من استشهاده، تجسّد إرادته في تحويل الزمن من عدو إلى حليف، حتى في مواجهة الموت المحتوم.

خامساً: علاقة السيرة بالزمن في أدب غسان

يمكن القول بناءً على ما تقدم، إن سيرة غسان كنفاني لم تكن مجرد خلفية لحياته الأدبية، إنما كانت نسيجاً عضوياً مع رؤيته الزمنية. فالهجرة المبكرة جعلته يختبر زمن الفقد والانقطاع. والمنفى المزدوج (لبنان ثم الكويت) جعله يختبر زمن الغربة بمعانيه المتعددة. والانخراط في العمل السياسي جعله يختبر زمن النضال بأبعاده الجماعية. والاستشهاد جعل من حياته زمناً مفتوحاً على المستقبل.

ولعلنا نلحظ أن هذه المحطات الحياتية تناظر المراحل الزمنية الثلاث في أدبه:

- النكبة والهجرة (1948): تمثل مرحلة الركود والاستسلام وهي زمن الفقد والندم. ويتجلى ذلك في قصة "شيء لا يذهب" حيث البطل الذي هرب من حيفا يعيش ندماً أبدياً: "لم أكن قط استحق ليلى... كنت جباناً أخاف الموت. ورفضت أن أحمل سلاحاً كي أدافع عن حيفا".
- الكويت والعمل السياسي (1956–1963): تمثل مرحلة الاحتجاج والاستنكار وهي زمن الهروب والتساؤل. ويتجلى ذلك في رواية "رجال في الشمس" حيث ينتهي حلم الخلاص الفردي بالموت في الخزان، ويطرح السؤال المصيري: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟".
- بيروت والثورة (1967–1972): تمثل مرحلة الانبعاث والثورة، وهي زمن الفعل والأمل. ويتجلى ذلك في رواية "أم سعد" حيث تغرس الأم الدالية اليابسة في التراب وتنتظر أن تبرعم، وكما تنتهي الرواية بكلماتها: "برعمت الدالية يا ابن العم... برعمت".

سادساً: أعمال غسان الأدبية: خريطة الزمن الإبداعي

قبل الشروع في تحليل المضامين الزمنية في أعمال غسان، من المفيد أن نستعرض خريطة إنتاجه الأدبي، إذ إن تتبع تسلسلها الزمني يكشف عن تطور رؤيته الزمنية. وقد قدم غسان إلى جانب نضاله السياسي وعمله الصحفي، أربع مجموعات قصصية هي:

1. موت سرير رقم 12 (1961م)
2. أرض البرتقال الحزين (1963م)
3. عالم ليس لنا (1965م)

4. عن الرجال والبنادق (1968م)

وله مجموعة من الروايات، منها:

1. رجال في الشمس (1963م)
2. ما تبقى لكم (1966م)
3. عائد إلى حيفا (1969م)
4. أم سعد (1969م)
5. الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك)

كما ترك ثلاث روايات غير مكتملة هي: "العاشق"، و"برقوق نيسان"، و"الأعمى والأطرش"، وثلاث مسرحيات هي: "الباب"، و"القبعة والنبي"، و"جسر إلى الأبد".

ويمكن ملاحظة أن الإنتاج الأدبي لغسان يغطي الفترة بين 1956 (تاريخ نشر قصته الأولى) و1972 (تاريخ استشهاده)، وهي الفترة ذاتها التي تشهد التحولات الكبرى في القضية الفلسطينية. وهذا التزامن بين الإنتاج الأدبي والتحولات التاريخية يجعل من أعمال غسان وثيقة فنية لتاريخ القضية، ومن عنصر الزمن محوراً أساسياً في قراءة هذا التاريخ.

سابعاً: ثقافة غسان: تنوع المعين وتعدد المصادر

اتسمت ثقافة غسان كنفاني بالتنوع والاتساع، مما أثر في تشكيل رؤيته الزمنية وفي تقنياته السردية. درس غسان في مدرسة فرنسية تبشيرية في طفولته، وهي تجربة لم يكملها بسبب الهجرة، لكنها فتحت له باب الاطلاع على الآداب الغربية. وقد شعر غسان في البداية بالحرج لأنه لم يكن يتقن اللغة العربية، مما دفعه إلى الانكباب على دراسة الأدب العربي قبل أن يسجل تخصصه في الجامعة.

ولم يكتف غسان بدراسة اللغة العربية، بل اطلع على إنجازات الغرب، فقرأ "فيكتور هيجو"، و"دوستويفسكي"، و"ديكنز"، و"بلزاك"، و"غوركي"، و"تشيكوف". ويُلاحظ تأثر غسان المباشر بهؤلاء الكتاب في قصصه القصيرة الأولى، خاصة في تصويره لعالم الأطفال المشردين، كما في شخصية حميد في قصة "كعك على الرصيف"، التي تستدعي عوالم "ديكنز وتشيكوف" في تصوير معاناة الأطفال.

كما قرأ غسان في الفلسفة وفلسفة العبث، وتظهر آثار هذه القراءات في مسرحياته، خاصة "الباب" و"القبعة والنبي". ومن المهم في سياق هذا الكتاب أن نلاحظ أن قراءاته الفلسفية خاصة في فلسفة العبث، قد شكلت رؤيته للزمن، إذ جعلته يرى في الزمن أحياناً عبثاً لا معنى له (كما في زمن الركود)، وأحياناً أداة للتحرر (كما في زمن الثورة).

وفي حديثه عن التأثيرات الثقافية قال غسان: "لقد كنت معجباً بالأدباء السوفييت". غير أنه أكدَّ أن التأثير الأكبر في كتاباته كان يرجع إلى الواقع نفسه، وإلى مشاهداته وتجارب أصدقائه، وعائلته وإخوته وتلاميذه،

وتعايشه في المخيمات مع الفقر والبؤس. وهذا الاعتراف يُظهر أن ثقافة غسان لم تكن مجرد تحصيل نظري، إنما كانت صهراً لتجارب الحياة في قوالب فنية، وهو ما جعل زمنه السردي زمناً حياً نابضاً بتفاصيل الواقع اليومي.

ثامناً: دلالة السيرة في تطور المضامين الزمنية

من خلال استعراض سيرة غسان كنفاني، يمكن استخلاص دلالتين أساسيتين لهذا الفصل في سياق الكتاب عن تطور المضامين الزمنية:

- الدلالة الأولى: أن حياة غسان كانت معادلاً موضوعياً لتاريخ القضية الفلسطينية في أكثر مراحلها حساسية، من نكبة إلى نكسة إلى ثورة. وهذا التطابق جعل من زمن حياته نموذجاً للزمن الفلسطيني، بما فيه من انقطاعات وتحولات وآمال.
- الدلالة الثانية: أن تجارب غسان الحياتية المباشرة (النكبة، المنفى، العمل الصحفي، النضال السياسي، الاستشهاد) كانت المصدر الأساسي لتشكيل رؤيته الزمنية، حيث حوّل هذه التجارب إلى بنى زمنية في أعماله الأدبية، جاعلاً من الماضي حضوراً ومن الحاضر معاناة، ومن المستقبل أملاً أو هروباً، بحسب المرحلة التي يعيشها.

ويؤكد غسان على هذه الحقيقة بقوله:

"أظن أن التأثير الأكبر على كتاباتي يرجع إلى الواقع نفسه: ما أشاهده، تجارب أصدقائي وعائلتي وإخوتي وتلاميذي، تعايشي في المخيمات مع الفقراء والبؤس. هذه العوامل التي أثّرت فيّ. لقد استوحيت كافة أبطال رواياتي من الواقع الذي كان يصدم بقوة، وليس من الخيال".

وبهذا تكون سيرة غسان كنفاني قد مهّدت الطريق لفهم تطور المضامين الزمنية في أعماله، وهو ما سنتناوله بالتحليل في الفصول التالية، حيث سنتتبع مسار الزمن في قصصه ورواياته، من زمن الركود والاستسلام، إلى زمن الاحتجاج والاستنكار، إلى زمن الانبعاث والثورة.

الفصل الثاني:

مدخل إلى عالم غسان كنفاني

تمهيد

قبل الغوص في تحليل البُنى الزمنية في أدب غسان كنفاني، لا بد من التوقف عند مدخل يضيء لنا العالم الفني والنضالي الذي كان يعيش فيه، والرؤية التي صاغت علاقته بالزمن. فغسان لم يكن كاتباً يمارس الإبداع بمعزل عن هموم وطنه وقضايا شعبه، فقد كان نصه الأدبي امتداداً لنضاله السياسي، وتعبيراً عن رؤيته للوجود والتاريخ والمصير.

وفي هذا الفصل سأحاول رسم ملامح هذا العالم، مستنداً إلى أقوال غسان نفسه، وإلى شهادات المقربين منه، وإلى تحليلي لهذه الرؤية.

يقول غسان في إحدى مقولاته: "الإنسان في نهاية الأمر قضية". هذه العبارة المكثفة تحمل رؤية متكاملة للزمن، فهي تختزل التجربة الفلسطينية في مفهوم القضية التي تتجاوز حدود الزمن الفردي إلى أفق الجماعة والتاريخ.

أولاً: جملة غسان التي تلخص رؤيته للزمن

يقول غسان كنفاني جملة قصيرة مفعمة بألف سؤال: "إنه ثمن باهظ بلا شك أن يشتري الإنسان حياته اليومية بموت يومي".

هذه الجملة التي تبدو وكأنها مجرد تأمل فلسفي عابر، تحمل جوهر رؤية غسان للزمن، وتكشف عن وعيه العميق بالمفارقة التي يعيشها الإنسان الفلسطيني. فالموت اليومي الذي يتحدث عنه غسان ليس موتاً بيولوجياً، بل موت الزمن، أو بالأحرى موت معنى الزمن.

إنه تحول الحياة اليومية إلى تكرار ممل، إلى روتين يفتقر إلى الأفق، إلى زمن دائري لا يتقدم ولا يتطور. وهذا الموت اليومي هو الثمن الذي يدفعه الفلسطيني مقابل استمراره في العيش خارج وطنه بعيداً عن هويته، غارقاً في التفاصيل الصغيرة التي تلهيه عن القضية الكبرى.

وهنا أرى أن هذه الجملة تمثل المفتاح الأساسي لفهم تطور المضامين الزمنية في أدب غسان. فكل مرحلة من مراحل إنتاجه الأدبي كانت محاولة للإجابة عن سؤال واحد: كيف يمكن للإنسان أن يشتري حياته اليومية من دون أن يدفع ثمنها موتاً يومياً؟

أو بعبارة أخرى: كيف يمكن للزمن أن يصبح فاعلاً وحيّاً بدلاً من أن يكون وعاءً ميتاً للتكرار؟

وهذا السؤال، كما سنرى، هو الذي قاد غسان من مرحلة الركود والاستسلام إلى مرحلة الاحتجاج والاستنكار، ثم إلى مرحلة الانبعاث والثورة.

في رواية "عائد إلى حيفا"، يطرح غسان هذا السؤال بصيغة أخرى، حين يتأمل سعيد في معنى الوطن، فيخاطب زوجته:

"أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله".

فهذه الجملة الموجزة تختزل وعياً زمنياً عميقاً: أن الوطن ليس مجرد مكان، بل هو زمن لم ينكسر، وحياة لم تتحول إلى موت يومي.

ثانياً: الجبهات الثلاث: حين يصبح الزمن ساحة حرب

يمكن القول انطلاقاً من قراءتي المتأنية لحياة غسان وأعماله، أنه ناضل على ثلاث جبهات رئيسية، كل منها كانت تمثل صراعاً مع الزمن في مستوى مختلف:

- الجبهة الأولى: القتال من أجل فلسطين:

وهي الجبهة الوطنية، حيث كان النضال من أجل تحرير الوطن يعني استعادة زمن فلسطين، زمن الكرامة والانتماء، بعد أن اغتصب الاحتلال هذا الزمن وحوّله إلى زمن الضياع.

ويجسّد هذه الرؤية قول سعيد في "عائد إلى حيفا": "كنت أفتش عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم".

- الجبهة الثانية: الصراع ضد شراسة المرض:

فمرض السكري الذي اكتشفه غسان في 31 مايو 1959 كان صراعاً مع الزمن البيولوجي، مع الزمن المحدود الذي يفرضه الجسد المريض. وهذا الصراع جعل غسان يشعر بأن كل يوم قد يكون الأخير، مما دفعه إلى تكثيف إنتاجه الأدبي بتسارع لم يسبق الموت، وكأنه في مباراة مع الزمن.

- الجبهة الثالثة: الإبداع الفني وتنوع أشكاله:

فالإبداع كان وسيلة غسان لتجاوز الزمن، لخلق زمن جديد لا يخضع لقيود الموت أو الاحتلال. فكل قصة كتبها وكل رواية أنجزها، كانت انتصاراً على الزمن المحدود، وتحويلاً للحياة الفانية إلى عمل خالد.

وهنا أود أن أشير إلى أن هذه الجبهات الثلاث لم تكن منفصلة في وعي غسان، كانت متداخلة. فالقتال من أجل فلسطين كان يغذي الإبداع، والإبداع كان سلاحاً في القتال، والمرض كان يضفي على الكل إلحاحاً زمنياً خاصاً. وبهذا المعنى يمكن القول إن حياة غسان كانت صراعاً مع الزمن على جميع المستويات:

الزمن التاريخي، والزمن البيولوجي، والزمن الإبداعي.

ثالثاً: "أرض البرتقال الحزين": لحظة انكسار الزمن

لم تكن "أرض البرتقال الحزين" أول قصة كتبها غسان كنفاني، غير أنها يمكن اعتبارها نقطة البداية في تأريخه للقضية الفلسطينية، وفي تشكيل وعيه الزمني. ذلك أن هذه القصة تسجل لحظة الخروج من عكا عام 1948، وهي اللحظة التي انكسر فيها زمن الطفولة السعيد، وحل محله زمن التشرد والضياع.

في هذه القصة يصف غسان خروجه من عكا، وهو يرويها بلسان المتكلم حيناً، وبلغة المخاطب حيناً آخر، حيث يتوجه بالحديث إلى أخيه الأصغر منه، الذي كان يافعاً لم يبلغ الثانية عشرة حين بدأ الهجوم على عكا. وهذا التناوب بين ضمير المتكلم والمخاطب ليس مجرد أسلوب سردي، هو وعي زمني خاص، حيث يجمع الراوي بين زمنه الشخصي (التجربة المباشرة) وزمن الآخر (الشاهد الذي يحتاج إلى التذكير).

ويصف غسان هذه اللحظة التي انكسر فيها الزمن:

"وبدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب... نزل أبوك من جانب السائق، ومد كفه فحمل برتقالة منها... أخذ ينظر إليها بصمت... ثم انفجر يبكي كطفل بائس".

ويحكي عن فلاح كان يزرع البرتقال ويقول:

"إنه يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء".

فالبرتقال هنا ليس ثمرة، هو رمز للوطن والذاكرة والجذور التي تموت بغياب أصحابها، وهو أيضاً رمز للزمن الذي انكسر بفعل النكبة.

وأود أن أتوقف عند هذه النقطة بالذات، لأنها تكشف عن بعد زمني مهم في أدب غسان. فاستخدام ضمير المتكلم والمخاطب معاً في سرد الذكريات، هو اعتراف ضمني بأن الزمن ليس ملكاً للفرد وحده، إنما هو زمن جماعي يتقاسمه الجيل كله. فالذي يروي القصة لم يعد فرداً، لقد أصبح صوتاً لجيل بكامله، جيل النكبة الذي اختبر معنى انكسار الزمن.

وتنتهي القصة أو بالأحرى تبدأ، بالخروج من عكا. فالقصة لا تنتهي بالخروج، هي تبدأ به. وهذا هو جوهر المأساة الفلسطينية في نظر غسان: الخروج ليس نهاية، هو بداية لرحلة عذاب تمتد طويلاً. إنه تحول من زمن الاستقرار إلى زمن التشرد، ومن زمن الأمان إلى زمن الخوف، ومن زمن الكرامة إلى زمن الذل.

وأرى أن هذا الوعي بالخروج كبداية لا كنهاية هو ما جعل غسان يرفض النظرة الرومانسية إلى الماضي، ويصر على تحويل الماضي، إلى قوة دافعة للحاضر والمستقبل. فالماضي في أدب غسان ليس مكاناً للحنين العاطفي، هو جرح مفتوح وسؤال معلق، ودعوة دائمة للفعل.

وفي هذا السياق، يمكن فهم مقولة غسان:

"إذا كنا مدافعين فاشلين عن القضية، فالأجدر بنا أن نغير المدافعين، لا أن نغير القضية".

فهذه المقولة تعكس وعياً زمنياً ناضجاً، يرى أن الماضي (حتى لو كان فشلاً) لا يُلغى، بل يُصحح، وأن استمرارية القضية هي الضمان لاستمرارية الزمن الفلسطيني.

رابعاً: القضية الوطنية والقضية الطبقية: تشابك الأزمنة

من السمات البارزة في أدب غسان كنفاني ارتباط القضية الوطنية بالقضية الطبقية، وهذا الارتباط يحمل في طياته بعداً زمنياً مهماً. فالفقراء في قصص غسان ليسوا مجرد ضحايا للاحتلال، هم أيضاً ضحايا لاستغلال طبقي يسبق الاحتلال أو يصاحبه. وهذا التشابك بين القضيتين يكشف عن رؤية زمنية مركبة، حيث يتداخل زمن الاحتلال (الزمن الخارجي) مع زمن الاستغلال الطبقي (الزمن الداخلي).

وهنا أود أن أضيف، إن ربط غسان بين القضيتين لم يكن مجرد تبني لإيديولوجية ماركسية، إنما كان وعياً عميقاً بأن الزمن الفلسطيني ليس زمناً واحداً، إنه أزمنة متعددة تتداخل وتتصارع.

فهناك زمن الاحتلال الذي يفرض نفسه على الكل، وهناك زمن الفقر الذي يطبع حياة الفقراء بطابع خاص، وهناك زمن المقاومة الذي يبدأ بالظهور في مرحلة لاحقة. وهذه الأزمنة المتعددة هي ما يجعل أدب غسان غنياً بالدلالات الزمنية، وقابلاً للتحليل من زوايا مختلفة.

وقد وُفِّق غسان في خلق العديد من الشخصيات المطحونة النابضة بالحياة، والتي تشهد على قناعته الفكرية والوجدانية، بأن مأساة فقد الوطن هي مأساة الفقراء من أهله أساساً وأولاً. فهؤلاء الفقراء هم الذين يدفعون الثمن الأكبر في زمن النكبة، وهم أيضاً الذين يتحملون عبء الثورة في زمن الانبعاث.

وفي رواية "أم سعد"، يتجلى هذا التشابك بوضوح، حيث تقول أم سعد معبرة عن وعيها الطبقي والنضالي: "هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين.. هي تخلف وفلسطين تأخذ".

وفي مكان آخر تعبّر عن إحساسها بالزمن المسجون:

"الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع المخيم حبس وبيتك حبس والجريدة حبس والراديو حبس والباص والشارع وعيون الناس.. أعمارنا حبس والعشرون سنة الماضية حبس والمختار حبس".

وهذه المقولة من أم سعد تختزل وعياً زمنياً عميقاً: فالحبس ليس مكانياً. هو زمني أيضاً. فالمخيم والبيت والجريدة والراديو أماكن أو وسائل. هي مظاهر لزمن مسروق، زمن تحول إلى سجن يمنع الفلسطيني من التحرك نحو المستقبل.

خامساً: نقطة التحول: عندما يتحول التعليم إلى وعي زمني

من المشاهد التي تكتسب دلالة خاصة في سيرة غسان، تلك اللحظة التي كان فيها معلماً في أحد مخيمات اللاجئين، وحاول أن يعلم الأطفال كيف يرسمون تفاحة وموزة، فاكتشف أنهم لم يسبق لهم أن رأوا تفاحة أو موزة. وفي هذه اللحظة الحاسمة محا غسان الرسوم عن اللوح، وطلب من الأطفال أن يرسموا المخيم.

يقول غسان عن هذه اللحظة:

"وأذكر جيداً بأنني شعرت في تلك اللحظة بأن عليّ أن أقوم بعمل ما، إذ أنني أدركت بوضوح قبل أن أستطلع وجوه الأطفال الجالسين ورائي بأنه لم يسبق لهم أن شاهدوا تفاحة أو موزة. وفي الواقع كانت العلاقة بين أحاسيسهم وهذه الرسوم علاقة متوترة لا علاقة جيدة. كانت تلك نقطة تحول حاسمة".

وهنا أود أن أقدم تحليلي لهذا المشهد، لأنه يحمل دلالات زمنية عميقة. فالتفاحة والموزة في هذا السياق هما رمزان لزمن آخر، زمن الطبيعي والعادي، وزمن الأشياء التي يفترض أن تكون في متناول الجميع. لكن الأطفال في المخيم يعيشون زمناً مختلفاً، زمناً اختلت فيه كل المقاييس الطبيعية. وفي هذا الزمن الجديد، أصبح المخيم هو الواقع، والتفاحة أصبحت حُلماً بعيداً.

بهذا المعنى كان قرار غسان بمحو التفاحة والموزة، ورسم المخيم بدلاً منهما، قراراً زمنياً بامتياز. إنه اعتراف بأنه لا يمكن تعليم الأطفال بعيداً عن زمنهم، لا يمكن رسم تفاحة لمن لم يذق طعم التفاحة، ولا يمكن التحدث عن جمال الطبيعة لمن يعيش في خيام الصفيح.

وهذا الوعي الزمني هو ما جعل غسان يصر على أن يكون أدبه ابن وقته، معبراً عن زمن المخيمات وزمن النكبة، وزمن المعاناة قبل أن يتجه إلى زمن المقاومة والثورة.

وتضيف الناقدة رضوى عاشور في تحليلها لقرار غسان هذا: "كان قرار غسان كنفاني محورياً في حياته، لقد اختار أن يرفض الفصل التعسفي بين الإنسان والمدرس والطفل والتلميذ. الفصل بين الوطن والتعليم والحياة والفن. اختار أن يرفض تجزئة الإنسان وتحويله لعدد من الوظائف المتصارعة والمتضاربة. كان في اختياره وعي بأن تجزئة الإنسان تعني غربته واغترابه".

وأنا أؤيد هذا التحليل، وأضيف إليه أن رفض التجزئة الذي تحدث عنه غسان هو في جوهره رفض لتجزئة الزمن. فالإنسان المتكامل عند غسان هو الذي يعيش زمناً واحداً متصلاً، حيث لا فصل بين زمن التعليم وزمن النضال، ولا بين زمن الفن وزمن السياسة. وأما الإنسان المجزأ فهو الذي يعيش أزمنة متعددة متصارعة، ولا يجد وسيلة للجمع بينها.

سادساً: الواقع مصدر الإلهام: زمن المشاهدة وتجربة الحياة

يؤكد غسان مراراً أن التأثير الأكبر في كتاباته كان للواقع نفسه ولما يشاهده، وتجارب أصدقائه وعائلته وإخوته وتلاميذه، وتعايشه في المخيمات مع الفقراء والبؤس. وهذا الاعتراف يحمل دلالتين أساسيتين لدراسة الزمن في أدبه:

- الدلالة الأولى: أن زمن كتابات غسان هو زمن واقعي، مستمد من تجربة مباشرة، لا من خيال منفصل عن الواقع. وهذا يفسر لماذا كانت قصصه وروياته تعبيراً أميناً عن مراحل تطور القضية الفلسطينية، من نكبة إلى نكسة إلى ثورة.
- الدلالة الثانية: أن زمن المشاهدة عند غسان ليس مجرد تسجيل سلبي للواقع، هو زمن تفاعلي، حيث يختلط وعي الكاتب بوعي الشخصيات، وتتجاور الذاكرة الفردية بالذاكرة الجماعية. وبهذا المعنى كان غسان كما يقول عن نفسه، يستوحي أبطاله من الواقع وليس من الخيال، مما جعل شخصياته تعبيراً حياً عن زمنها ومكانها.

ويجسّد هذا المعنى قول أم سعد في الرواية التي تحمل اسمها:

"كانت أم سعد علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض".

فهذه الجملة تعكس كيف أن الواقع الفلسطيني نفسه (زمن المنفى) يصبح مصدراً للإبداع، وكأن الكاتب يحفر في أرض الواقع ليستخرج منها مفردات زمنه.

وأرى أن هذه النقطة حاسمة في فهم تطور المضامين الزمنية عند غسان. فالواقع الذي كان يشاهده غسان في الخمسينات والستينات لم يكن واقعاً ثابتاً، كان واقعاً متحركاً يتغير من مرحلة إلى أخرى. ومن هنا جاءت كتاباته تعبيراً عن هذا التغير، وعن تطور العلاقة بين الفلسطيني وزمنه.

ففي البداية كان الواقع هو زمن الركود والاستسلام، ثم تحول إلى زمن الاحتجاج والاستنكار، ثم إلى زمن الثورة والانبعاث.

سابعاً: الزمن كشخصية درامية في روايات غسان

من السمات المميزة في أدب غسان كنفاني أنه جعل من الزمن شخصية درامية رئيسية في العديد من رواياته. ففي "ما تبقى لكم"، جعل من الساعة شخصية رئيسية، حيث يقول النقاد: "لقد جعل غسان كنفاني من الساعة واحدة من شخصياته الرئيسية، فالساعة تأخذ مساحة كبيرة لديه ويشبهها بالنعش، فالوقت وتساقطه يمثل الموت القادم والمتحرك بسرعة هائلة من كل الجهات، والساعة هي الزمن المسروق والضائع من حياة الفلسطينيين".

ويأتي وصف الزمن في هذه الرواية معبراً عن هذا التشخيص الدرامي:

"ما تبقى لها. ما تبقى لكُم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الموت. حساب الخسارة. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبّارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه، كله مؤجل كله مؤجل".

وهذه العبارات تجسّد الزمن ككيان درامي يعيش مع الشخصيات ويتفاعل معها، بل ويتحكم بمصيرها.

كما جعل غسان من الصحراء شخصية أخرى في رواياته، حيث تجسّد الصحراء "شخصية مهمة الرواية، وهي أشبه بمخلوق ساكن وميت يلبس ثوب الحياة، وهي أيضاً تنهض وتمارس طقوسها كما تشاء وتمتلك واقعاً لا يشبه طبيعتها أبداً".

وفي رواية "رجال في الشمس"، يصف غسان الصحراء بوصف يجعلها كائناً حياً يتفاعل مع الشخصيات: "الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض، وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون".

وهذه التقنية في تشخيص الزمن والمكان تحمل دلالة نقدية عميقة: فبجعل الزمن شخصية درامية، يؤكد غسان أن الزمن في حياة الفلسطينيين ليس خلفية محايدة، إنما هو عنصر فاعل يشارك في صنع المأساة أو في صنع الانبعاث.

ثامناً: التأريخ الفني للقضية الفلسطينية

يمكن القول في ختام هذا المدخل، إن غسان كنفاني قد أرَّخَ للقضية الفلسطينية بطرق فنية، من خلال أبطال قصصه مجتمعة، ومن خلال تحولاتهم الزمنية. فهو يبدأ من الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون في الغربة والضياع، ثم ينتقل إلى حالة التمرد على الصمت والركود، ثم إلى الثورة على الأوضاع التي أوصلت الفلسطيني إلى هذا الحد، وأخيراً إلى قطع الصلة بالماضي الذليل، والتطلّع إلى المستقبل الذي يستعيد فيه الفلسطيني كرامته وهُويته المنشودة.

وهذا التأريخ الفني في نظري، هو ما يميز أدب غسان عن غيره من كتاب القضية الفلسطينية. فهو لم يكتف بتصوير الأحداث، إنما صور تحولات الزمن نفسه، وكيف يتغير وعي الإنسان بتغير الزمن الذي يعيش فيه. وهذا الوعي بالزمن كعنصر متغير، وليس كخلفية ثابتة، هو ما سيجعل تحليلي للبُنى الزمنية في أعماله غنياً ومثمراً.

ويختزل غسان هذه الرؤية التاريخية في قوله:

"يتبدل المدافعون، لا تبدل القضية".

فهذه العبارة تعكس وعياً زمنياً جدلياً، يرى أن استمرارية القضية في الزمن هي الثابت، بينما تتغير الأدوات والأشخاص، وهذا هو جوهر التأريخ الفني للقضية الفلسطينية.

في هذا الفصل الذي مثل مدخلاً إلى عالم غسان كنفاني، وقفنا عند عدد من المحطات الأساسية التي تشكل رؤيته الزمنية:

- جملة غسان المحورية عن "شراء الحياة اليومية بموت يومي"، والتي تعكس وعيه بالمفارقة الزمنية التي يعيشها الفلسطيني.
- الجبهات الثلاث التي ناضل عليها (فلسطين، المرض، الإبداع)، وكلها كانت صراعاً مع الزمن بمستوياته المختلفة.
- قصة "أرض البرتقال الحزين" بوصفها لحظة انكسار الزمن، وتحول الخروج من نهاية إلى بداية.
- ارتباط القضية الوطنية بالقضية الطبقية، وعلاقته بتشابك الأزمنة في أدب غسان.
- لحظة تحول التعليم في المخيم، وما حملته من وعي زمني بضرورة مواكبة الواقع بدلاً من الهروب منه.
- الواقع كمصدر إلهام، وما يعنيه ذلك من ارتباط عضوي بين زمن الكتابة وزمن الحياة.
- الزمن كشخصية درامية في روايات غسان، وما تعنيه هذه التقنية من تأكيد على فاعلية الزمن في تشكيل المصير.
- التأريخ الفني للقضية الفلسطينية، وكيف جعل غسان من الزمن عنصراً متغيراً في نصوصه، وليس مجرد خلفية ثابتة.

وبهذا المدخل، نكون قد مهّدنا الطريق لتحليل تفصيلي للمضامين الزمنية في أعمال غسان، مقسمة إلى ثلاث مراحل: الركود والاستسلام، والاحتجاج والاستنكار، والانبعاث والثورة.

الفصل الثالث:

مراحل أدب غسان كنفاني الزمنية

تمهيد

ينقسم أدب غسان كنفاني في رحلته مع الزمن إلى ثلاث مراحل رئيسية، تعكس كل منها تحولاً في علاقة الفلسطيني بزمنه، وتطوراً في وعيه التاريخي والنضالي. وهذه المراحل هي بنية نقدية تكشف عن مسار تطور القضية الفلسطينية نفسها، كما عاشها غسان وصوّرها في أعماله الأدبية.

فالزمن في أدب غسان لم يكن خلفية محايدة، كان عنصراً فاعلاً يتغير بتغير الظروف، ويتطور بتطور الوعي. وقد جسّد غسان هذا التطور في البنية الزمنية لأعماله، حيث انتقل من الزمن الدائري المأساوي في المرحلة الأولى، إلى الزمن المتوتر المتشظي في الثانية، ثم إلى الزمن المفتوح المتجه نحو المستقبل في الثالثة.

والمراحل الثلاث هي:

1. مرحلة الركود والاستسلام (1956-1963)
2. مرحلة الاحتجاج والاستنكار (1963-1967)
3. مرحلة الانبعاث والثورة (1967-1972)

وسأبدأ في هذا الفصل بتحليل المرحلة الأولى، متتبعاً ملامحها الزمنية في أبرز نصوصها، ومحاولاً الكشف عن البنى الزمنية التي شكلت وعي الفلسطيني في تلك الفترة العصيبة.

المرحلة الأولى:

مرحلة الركود والاستسلام (1956-1963)

أولاً: خصائص المرحلة الزمنية

تمتد هذه المرحلة بين عامي 1956 و1963، وهي فترة شهدت ركوداً في القضية الفلسطينية على المستويين السياسي والنضالي، وتحولاً في حياة الفلسطينيين من صدمة النكبة إلى واقع التشرد والفقر في المخيمات. وقد كتب غسان في هذه المرحلة ثلاث مجموعات قصصية هي: "موت سرير رقم 12" (1961)، "أرض البرتقال الحزين" (1963)، و "عالم ليس لنا" (1965).

ويصف الناقد إلياس خوري هذه المجموعات بقوله: "إن هذه المجموعات الثلاث لا تريد سوى أن تصرخ في وجوهنا، أن تنزف قضيتها دون أن يكون بوسعها أن تعطي حلولاً، أو حتى ترسم سؤالاً". وهذا الوصف يكشف عن طبيعة الزمن في هذه المرحلة: إنه زمن الذهول والصدمة، وزمن المفاجأة المرعبة، وزمن الهرب السريع، وزمن المقاومة التي انطفأت، ثم زمن الواقع المستجد بكل تعاسته وآلامه.

إنها، كما يقول خوري، "ردة الفعل الأولى على الهزيمة"، وهي تجسيد للشعور بالعار والذل والتخلي عن الوطن والندم.

وتلتقط الدكتورة أفنان القاسم في دراستها "الحداثة الزرقاء" طبيعة هذه المرحلة قائلة: "انتهى التمثيل الساكن والوصفي الذي يستمد قوته الوحيدة من "تقليد القدامى"، وانتهت السيطرة الأدبية التي تتجلى في التكرار الساذج للنماذج الموافقة لواقع اجتماعي آخر، وغدت بالتالي عقيمة ومقطوعة تماماً عن المشاكل الاجتماعية لعصرنا". فالركود الذي طبع القضية الفلسطينية انعكس في شكل سردي وصفي ساكن، يعجز عن تقديم حلول أو حتى طرح أسئلة.

وأود أن أشير إلى أن هذه المرحلة تمثل الزمن الدائري المأساوي، حيث يعيد الفلسطيني تجربة الألم نفسه يومياً، دون أن يجد مخرجاً أو أملاً. فالأحداث تتكرر والوجع يتجدد، والذاكرة تعود باستمرار إلى لحظة السقوط. وهذا الزمن الدائري هو ما يجعل الشخصيات عاجزة عن التقدم نحو المستقبل، مأسورة في حلقة مفرغة من الحنين والندم.

ثانياً: تحليل البنى الزمنية في قصص المرحلة الأولى

1. قصة "شيء لا يذهب" (1958): زمن الذاكرة والندم الأبدي

تُعد قصة "شيء لا يذهب" من مجموعة "موت سرير رقم 12" نموذجاً بكراً للزمن المأسور في أدب غسان. فالبطل يسافر إلى إيران ليضع باقة ورد على ضريح الشاعر عمر الخيام، لكن الرحلة ليست مجرد رحلة مكانية، إنما هي رحلة في أعماق الذاكرة، حيث يستعيد البطل علاقته بحبيبته ليلى التي بقيت في حيفا، والتي ضحّت بكل شيء من أجل الوطن الذي اغتصب.

وفي أثناء رحلته في القطار، يستعيد البطل ذكرياته عن الماضي، ويحس بالندم والخجل. "لم أكن قط استحق ليلى... كانت أحسن مني بكثير، كنت جباناً أخاف الموت. ورفضت أن أحمل سلاحاً كي أدافع عن حيفا". ويتذكر كلمات ليلى له قبل أن يرحل: "باستطاعتك أن تغادر حيفا وأن تهرب من حيفا. ولكنك في يوم سيأتي لا بد أن تصحو. وتكتشف وتندم".

التحليل الزمني للقصة:

من خلال تطبيق الإطار النظري الذي استعرضناه سابقاً، يمكن تحليل البنية الزمنية لهذه القصة على النحو التالي:

- النظام الزمني: يعتمد النص على الاسترجاع بشكل مكثف، حيث ينتقل البطل بين الحاضر (رحلة القطار) والماضي (ذكريات ليلى وحيفا).

البنية الزمنية: حاضر ← ماضي ← حاضر، في نمط دائري يعكس عجز البطل عن التحرر من الماضي.

- المدة الزمنية: يستخدم غسان التلخيص في عرض سنوات النكبة، والمشهد في استحضار لحظات الذاكرة الحميمية، مما يخلق إيقاعاً زمنياً متبايناً بين تسارع زمن الحاضر وبطء زمن الذاكرة.
- الزمن النفسي: يعكس النص زمن الندم الذي يعيشه البطل، حيث يصبح الماضي عبئاً نفسياً ثقيلاً. جملة البطل "لم تستطع ليلى أن تغيرني" تعكس شعوره بالعجز عن تغيير زمنه، وكأن الزمن قد تجمد عند لحظة الفشل.
- الزمن الرمزي: تحمل الرحلة في الليل دلالة رمزية عميقة، فالليل يرمز إلى الصمت والعمى والطرش، وهي صفات تناسب مرحلة الركود والاستسلام. كما أن وضع باقة ورد على قبر شاعر ميت هو رمز لفعل غير مجدٍ، يوازي حياة البطل التي فقدت معناها.
- ضمير السرد: استخدام ضمير المتكلم (أنا) يعكس تركيزاً على الذات، ويشير إلى أن المأساة في هذه المرحلة كانت مأساة فردية قبل أن تصبح جماعية. البطل منغمس في ذاته، وغير قادر على تجاوز ألمه الشخصي نحو هموم أوسع.

وأود أن أضيف أن اسم القصة نفسه "شيء لا يذهب" يحمل دلالة زمنية عميقة. فليلى تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب، أي أنها تريد أن تحتفظ بزمنها وبذاكرتها وبهويتها، حتى لو فقدت كل شيء آخر. وهذا "الشيء الذي لا يذهب" هو ما يبحث عنه الفلسطيني في كل مراحل النكبة: بقاء الهُوية رغم ضياع الوطن، وبقاء الذاكرة رغم تغير الزمن.

2. قصة "منتصف أيار" (1960): زمن الرسالة والندم المتأخر

في قصة "منتصف أيار"، يكتب بطل القصة رسالة إلى صديقه إبراهيم الذي قتل في معارك 1948، وذلك بعد اثنتي عشرة سنة من الحادثة. وكما في "شيء لا يذهب"، تعود بنا القصة إلى الماضي، لكنها هنا تتخذ شكل الرسالة، مما يمنحها طابعاً حميمياً وتعبيراً مباشراً عن مشاعر الندم والخجل.

"لست أدري لمن سوف أرسل هذه الرسالة، لقد كان عهدي لك أن أحمل إلى قبرك في كل منتصف أيار بعض أزهار الحنون... لقد مضت اثنتا عشرة سنة وأعتقد أنك بعدت كثيراً...".

التحليل الزمني للقصة:

- النظام الزمني: البنية الزمنية حاضر (كتابة الرسالة) ← ماضي (أحداث 1948) ← حاضر (التساؤل الوجودي). وكما في القصة السابقة، يعتمد النص على الاسترجاع، لكن الفارق هنا أن الزمن الماضي يمثل لحظة فشل أخلاقي (عدم إطلاق الرصاصة لإنقاذ الصديق)، مما يجعل الندم أكثر إيلاماً.
- المدة الزمنية: زمن الكتابة لا يتجاوز ساعة أو ساعتين، بينما زمن الأحداث التي يستعيدها يمتد إلى اثنتي عشرة سنة.

هذه المفارقة الزمنية بين قصر زمن السرد وطول زمن الحكاية تعكس ثقل الماضي على الحاضر، وكأن اثنتي عشرة سنة من الندم تتلخص في لحظة كتابة عاجزة.

- الزمن الرمزي: شهر أيار يحمل دلالة زمنية خاصة. أيار هو شهر الخصب والنماء في العادة، لكنه في هذه القصة يتحول إلى شهر الموت والنكبة. هذا الانقلاب الرمزي يعكس انقلاب الزمن الفلسطيني نفسه، حيث تحولت مواسم الحياة إلى مواسم موت.
- الزمن النفسي: يتجلى الزمن النفسي في سؤال البطل المتكرر: "لماذا أكتب لك؟" و "أما كان الأجدر أن أستمر في صمتي؟". هذه الأسئلة تعكس صراعاً داخلياً بين الرغبة في التذكر والخوف منه، وبين الحاجة إلى الاعتراف والرغبة في النسيان.
- ضمير السرد: استخدام ضمير المتكلم والمخاطب (أنا/أنت) يعكس حواراً مع الذات، حيث يخاطب البطل صديقه الميت، وكأنه يحاول تبرير فشله أمامه.

أرى أن قصة "منتصف أيار" تمثل مرحلة انتقالية داخل المرحلة الأولى نفسها. فبينما كانت "شيء لا يذهب" تعبر عن ندم فردي وعاطفي، فإن "منتصف أيار" تبدأ في طرح أسئلة أخلاقية وسياسية: لماذا تخاذل الفلسطينيون؟ لماذا لم يطلقوا الرصاص؟

هذه الأسئلة، وإن ظلت دون إجابة، فإنها تمهد الطريق للمرحلة الثانية، مرحلة الاحتجاج والاستنكار.

3. قصة "كعك على الرصيف" (1959): زمن الطفولة المسروقة

إذا كانت القصتان السابقتان تركزان على زمن الذاكرة والندم، فإن قصة "كعك على الرصيف" تنقلنا إلى زمن آخر، هو زمن الطفولة في المخيمات، حيث يتحول الأطفال إلى ضحايا للفقر والتشرد، وتُسرق منهم طفولتهم في صراع يومي من أجل لقمة العيش.

كُتِبت هذه القصة في عام 1959، وتستند إلى تجربة غسان الحقيقية في التدريس في مخيم اليرموك. بطل القصة هو حميد، الطفل الفلسطيني الذي يعمل ماسحاً للأحذية في غير أوقات الدراسة، ويرتدي ثياباً رثة، ويغفو في الفصل من شدة التعب.

التحليل الزمني للقصة:

- النظام الزمني: البنية الزمنية معقدة ومتشظية: حاضر ← ماضي ← حاضر ← مستقبل ← حاضر. هذا التشظي يعكس تشظي حياة الطفل الفلسطيني، الذي لا يعيش زمناً واحداً متماسكاً، بل أزمنة متقطعة بين المدرسة والعمل والحلم.
- الاسترجاع والاستباق: يعتمد النص على الاسترجاع (تذكر المعلم لحميد قبل عام) والاستباق (تطلع حميد إلى المستقبل). لكن الاستباق هنا ليس أملاً، إنما هو امتداد للمعاناة، حيث لا يبدو المستقبل مختلفاً عن الحاضر.
- الزمن الاجتماعي: تعكس القصة زمن الفقر الذي يفرض إيقاعه الخاص على حياة الأطفال. فزمن حميد مقسم بين الدراسة (الزمن الرسمي) والعمل (زمن الكسب)، ولا مكان للعب أو الطفولة في هذا الجدول القاسي.
- المفارقة الزمنية: المفارقة أن المعلم يريد تعليم الأطفال رسم الفاكهة التي لم يروها، بينما يعيشون واقعاً مريراً لا يعرفه المعلمون. هذه المفارقة تعكس الانفصال الزمني بين عالم المدرسة (الزمن الطبيعي المفترض) وعالم المخيم (الزمن الفعلي).
- ضمير السرد: استخدام ضمير المتكلم (أنا) من وجهة نظر المعلم يعكس نظرة الخارج إلى المأساة، لكنها نظرة متعاطفة تسعى إلى الفهم.

إنَّ اختيار غسان للأطفال كأبطال في هذه المرحلة ليس اعتباطياً. فالطفل في نظر غسان يمثل زمن المستقبل، أي أن ما يحدث للأطفال اليوم سيحدد شكل الغد. وعندما يصور غسان طفولة مسروقة، فهو يصور مستقبلاً مسروقاً أيضاً.

لكن وجود الطفل حميد رغم بؤسه، يحمل في طياته بارقة أمل، فهو لا يزال يذهب إلى المدرسة ولا يزال يحلم، وهذا ما يجعل القصة تتجاوز مجرد البكاء على الماضي إلى نوع من التحدي الصامت.

4. قصة "الأخضر والأحمر" (1962): زمن الأسود الصغير ومعجزة الانبعاث

قصة "الأخضر والأحمر" هي الأكثر تعقيداً وثراءً في هذه المرحلة، وهي تمثل ذروة الإنتاج القصصي لغسان في مرحلة الركود، كما تمثل جسراً نحو المرحلة التالية. فالقصة مقسمة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يمثل مرحلة في حياة الشعب الفلسطيني:

- النزال: دخول المحتلين وبداية الذعر.
- جدول الدم: النكبة والمنفى.
- الموت للند: مرحلة الصبر والترقب.

التحليل الزمني للقصة:

- البنية الزمنية: تنقسم القصة إلى ثلاث مراحل زمنية متتالية، تمثل التطور الزمني للقضية الفلسطينية: ما قبل النكبة، والنكبة، وما بعدها. لكن هذا التطور ليس خطياً. هو زمن دوري يعيد نفسه، حيث يولد الأسود الصغير من رحم الموت، وتتكرر دورة الألم.
- الزمن الرمزي: شخصية الأسود الصغير هي أعظم رموز غسان الزمنية في هذه المرحلة. فهو يولد في لحظة النكبة (أيار 1948)، ويعيش تحت أكداس الأقدام، ويتنفس الطين ويشق طريقه كالدودة. هذا الطفل الأسود هو رمز للشعب الفلسطيني الذي رغم محاولات القتل والإفناء يظل حياً، يزحف ويبحث عن خلاص.
- المفارقة الزمنية: السؤال المتكرر في القصة: "أيها الأسود الصغير التعس لماذا لا تموت؟" ثم "أيها الذي يعيش تحت أكداس الأقدام... اكبر... اكبر...". هذه الأوامر المتناقضة (لا تمت / اكبر) تعكس صراع اليأس والإصرار في وجدان الأمة، وتجسد ازدواجية الزمن في هذه المرحلة: زمن الموت البطيء وزمن الحياة المصرّة.
- الزمن المستقبلي: خاتمة القصة "لا تمت قبل أن تكون نداً... لا تمت" تحمل استباقاً نحو المستقبل، حيث تتحول الندية من أمنية إلى ضرورة. هذه النهاية تفتح الباب أمام المرحلة التالية، مرحلة الثورة، حيث لن يموت الفلسطيني قبل أن يصبح نداً.

أود أن أتوقف عند رمزية اللونين في العنوان. الأخضر يرمز إلى الحياة والنَّماء والأرض وفلسطين. والأحمر يرمز إلى الدم والموت والثورة والتضحية. وهكذا فإن العنوان نفسه يجمع بين نقيضين، ويعكس جدلية الموت والحياة التي تميز هذه المرحلة. فالموت يهدد، والحياة تُصرّ، والدم يسقي الأرض لتنبت ثورة جديدة.

ويضيف الكاتب أحمد أبو طير في تحليله للهمّ الجماهيري في أدب غسان: "يبدأ الهم الجماهيري الفلسطيني بكافة تفرعاته وتلاوينه من مسألة الصراع الفلسطيني الصهيوني التي نتج عنها من البداية ضياع الوطن، وتشريد سكانه ليصبحوا لاجئين يتطلعون للعودة وتحرير الوطن". وهذا التحليل يؤكد ما نذهب إليه من أن مرحلة الركود كانت تحتوي في داخلها بذور المرحلة التالية، وأن غسان بوعيه التاريخي، كان يخطط لمسار متكامل للقضية في أعماله الأدبية.

ثالثاً: خلاصة تحليلية للمرحلة الأولى

بناءً على التحليل السابق، يمكن استخلاص النتائج التالية حول المضامين الزمنية في مرحلة الركود والاستسلام:

- نمط الزمن: زمن دائري مأساوي، حيث تعيد الشخصيات تجربة الألم نفسه، ولا تجد مخرجاً نحو المستقبل.
- علاقة الشخصيات بالزمن: الشخصيات مأسورة في الماضي، وتعيش الندم والحنين، وعاجزة عن صنع زمنها الخاص.
- دلالة الماضي: الماضي هو جرح مفتوح، ومصدر للألم والندم، وليس مصدر إلهام أو قوة.
- دلالة الحاضر: الحاضر هو زمن الانتظار والركود، وحياة يومية تفتقر إلى المعنى، كما في جملة غسان عن "شراء الحياة بموت يومي".
- دلالة المستقبل: المستقبل غائب أو مشوه، والشخصيات لا تفكر فيه، أو تفكر فيه كاستمرار للمعاناة.
- الرمز الزمني: الأبرز هو الليل، الرسالة، الساعة المعلقة، الأسود الصغير. كلها رموز تعكس توقف الزمن أو دورانه في حلقة مفرغة.
- التقنيات السردية: الاعتماد على الاسترجاع بشكل مكثف، واستخدام المونولوج الداخلي، وضمير المتكلم للتعبير عن الوعي الفردي المأسور.

رابعاً: من الركود إلى الاحتجاج: بذور التحول

على الرغم من أن هذه المرحلة تميزت بالركود والاستسلام، إلا أنها حملت في طياتها بذور التحول نحو المرحلة التالية. ففي قصة "الأخضر والأحمر"، نجد دعوة صريحة إلى الندية: "لا تمت قبل أن تكون نداً". وفي قصة "كعك على الرصيف"، نجد حضوراً للطفل الذي يرفض الاستسلام رغم كل شيء.

وفي قصة "منتصف أيار"، نجد أسئلة تبدأ في التوجه نحو المسؤولية الجماعية.

وهذا يدفعني إلى التساؤل:

ما الذي تغير في زمن الفلسطيني بين 1963 و1967؟

الإجابة ستكون في المرحلة التالية، حيث يتحول الفلسطيني من متفرج إلى فاعل، ومن متألم إلى محتج، ومن مستسلم إلى ثائر. لكن ذلك، كما سنرى، لم يكن ممكناً دون المرور بهذه المرحلة الأولى، حيث تراكم الوجع والندم حتى بلغا ذروتهما، فولدا سؤالاً جديداً:

لماذا لا ندق جدران الخزان؟

المرحلة الثانية:

الاحتجاج والاستنكار (1963-1967)

تمهيد

إذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بالركود والسكون، وجسدت زمن الذهول والصدمة الذي عاشه الفلسطيني بعد النكبة، فإن المرحلة الثانية تمثل نقلة نوعية في مسار أدب غسان كنفاني، حيث يبدأ الغليان والتململ، وتتغير علاقة الإنسان الفلسطيني بزمنه من السكون إلى الحركة، ومن الاستسلام إلى الاحتجاج، ومن الصمت إلى التساؤل.

أرى أنه محال أن يبقى المستسلم مستسلماً والمذهول قاعداً، والصغير طفلاً، لأن الزمن بمضمونه قد تغير. وهذا التحول في الزمن الموضوعي هو ما سينعكس في البنى الزمنية لأعمال غسان في هذه المرحلة.

تمتد هذه المرحلة بين عامي 1963 و1967، وهي فترة شهدت تحولات مهمة في الواقع الفلسطيني، حيث بدأت بوادر التحرك السياسي والنضالي تظهر، وإن كانت لا تزال في إطارها الأولي. وفي هذه المرحلة يكتب غسان روايتيه الكبيرتين: "رجال في الشمس" (1963) و "ما تبقى لكم" (1966)، وهما العملان اللذان يعبران عن بداية التحول من الركود إلى الاحتجاج، ومن الاستسلام إلى الاستنكار.

أولاً: خصائص المرحلة الزمنية

تتميز هذه المرحلة بعدة خصائص زمنية تميزها عن المرحلة السابقة:

1. التحول من الزمن الدائري إلى الزمن المتوتر. فبينما كانت المرحلة الأولى تعيد إنتاج الألم نفسه، تبدأ هذه المرحلة في خلق توتر زمني، حيث يصبح الزمن عنصراً ضاغطاً، ويدفع الشخصيات إلى التحرك، وإن كان تحركاً خاطئاً في كثير من الأحيان.
2. ظهور سؤال الفعل. إذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بالصمت والاندهاش، فإن هذه المرحلة تطرح سؤالاً جديداً: لماذا؟ ولماذا لا نفعل؟ وهذا السؤال هو جوهر الاحتجاج.
3. الانتقال من الفردي إلى الجماعي. فبينما كانت قصص المرحلة الأولى تركز على الفرد وذاكرته (الراوي في "شيء لا يذهب"، الكاتب في "منتصف أيار")، فإن روايات هذه المرحلة تتعامل مع شخصيات متعددة تمثل أجيالاً وطبقات مختلفة، مما يعكس تحولاً من الهم الفردي إلى الهم الجماعي.
4. ظهور فكرة الخلاص. وإن كان خلاصاً وهمياً في "رجال في الشمس"، فإنه يتحول إلى خلاص حقيقي في "ما تبقى لكم" من خلال التخلص من قيود الماضي.

ويقول الكاتب أحمد أبو طير في هذا المجال: "ولما لاحظت أن أغلب كتابات تلك السنوات كانت وجدانيات وذكريات شخصية لغسان كنفاني، وجدت أن تكريمه الحقيقي يكون في الكشف المستمر الدؤوب عن نواحي الإبداع في أعماله". وهذا القول يشير إلى أن كتابات غسان في هذه المرحلة بدأت تتجاوز الذاتية الفردية نحو أفق جماعي أوسع.

ثانياً: رواية "رجال في الشمس" (1963):
زمن الهروب والتساؤل المصيري

أ. ملخص الرواية ودلالتها الزمنية

تروي "رجال في الشمس" حكاية ثلاثة فلسطينيين من أجيال مختلفة، يجمعهم حلم واحد: الوصول إلى الكويت بحثاً عن لقمة العيش والخلاص من بؤس المخيمات.

أبو قيس الرجل العجوز الذي يحلم ببناء غرفة خارج المخيم؛ ومروان الشاب الذي يتحمل مسؤولية إعالة أسرته بعد أن تركه والده؛ وأسعد الشاب الذي يحلم بدنانير الكويت وبحياة جديدة.

يجمعهم مهرب فلسطيني عجوز هو "أبو الخيزران"، الذي يقودهم في رحلة الموت داخل خزان مياه مقفل وسط الصحراء الملتهبة.

والمفارقة الزمنية الأساسية في هذه الرواية، كما أراها، هي أن الشخصيات الثلاث تفر من زمنها الحاضر (زمن المخيمات والذل) إلى مستقبل توهّمت أنه أفضل (الكويت)، لكنها في الحقيقة كانت تهرب من الماضي نحو الموت. إنهم يريدون الهروب من الماضي لكنهم يحملونه معهم، ويريدون الوصول إلى المستقبل لكنهم يموتون في الطريق.

وهذه المفارقة هي التي تجعل الرواية تعبيراً صادقاً عن مرحلة الاحتجاج: الاحتجاج على زمن الركود، وعلى حلول الخلاص الفردي الوهمية.

وتتحدث الدكتور أفنان القاسم عن هذه الرواية في سياقها التاريخي: "لقد وقع اختيارنا على معالجة أعمال غسان كنفاني لأنه خير من يمثل النثر الفلسطيني المعاصر بالتوازي مع ما عاشه، ولأنه يجسد في أعماله كل تعقيدات الرواية الفلسطينية منذ الكفاح من أجل التحرر والاستقلال الوطني".

وهي تشير إلى أن "زمن كتابة هذه الرواية ومكانها والخلفيات السياسية والاجتماعية في العالم العربي وخصوصاً في فلسطين تدعو من الأديب الملتزم إلى اتخاذ تيار أدبي في مؤلفاته حيث يستطيع لتصوير واقع العالم العربي والشعب الفلسطيني".

وقد أثارت الرواية نقاشاً نقدياً حول علاقتها بالواقعية والرمزية، حيث يرى بعض النقاد أنها "مزيج من ثلاثة اتجاهات فنية، يقف الاتجاه الواقعي على رأسها، وتتوزع بنيتها العامة بين الاتجاهين: الرمزي والرومانسي". وهذا التداخل بين الواقعي والرمزي هو ما يجعل الرواية قادرة على حمل دلالات زمنية متعددة.

ب. التحليل الزمني للرواية

بتطبيق الإطار النظري الذي استعرضناه سابقاً، يمكن تحليل البنية الزمنية للرواية على النحو التالي:

- النظام الزمني: تعتمد الرواية على التداخل الزمني المكثف بين الحاضر والماضي عبر الاسترجاع.

تبدأ كل شخصية من الحاضر (لقاء المهرب)، ثم تعود إلى الماضي (ذكريات النكبة والحياة في فلسطين)، ثم تعود إلى الحاضر (رحلة الخزان).

البنية: حاضر ← ماضي ← حاضر. وهذا يعكس عجز الشخصيات عن الانفصال عن ماضيها، فهو حاضر معها في كل لحظة.

- المدة الزمنية: هناك تباين حاد في المدة الزمنية: سنوات من الماضي تُختزل في صفحات قليلة (تلخيص)، بينما تمتد لحظات الرحلة في الخزان بشكل يطيل زمن السرد (إبطاء).

هذا التباين يعكس ثقل اللحظة الحاسمة (الموت في الخزان) مقابل خفة الذكريات التي لم تعد تقدم شيئاً.

- الزمن الرمزي: الخزان هو الرمز الزمني الأبرز في الرواية. إنه ليس مجرد وعاء للماء، هو قبر متحرك وزمن مسجون ومستقبل وهمي.

كما أن الصحراء ترمز إلى زمن الانتظار والضياع، حيث يضيع الزمن بلا معنى. وقد وصف الناقد حاتم استانبولي هذه الرمزية قائلاً: "الزمان والمكان استخدمهما غسان بحرفية فلسفية عميقة في سياق قراءته لمرحلة ما بين جريمة النكبة وهزيمة حزيران، وانحصر المكان في الصحراء والمخيم اللذين رمزا إلى فكرتي الموت والعار والضياع وفقدان البوصلة وغياب الهوية".

- الزمن النفسي: تعكس الشخصيات ثلاثة أنواع من الزمن النفسي: زمن الندم عند أبي قيس (الحنين إلى الماضي)، وزمن الخوف عند أسعد (الخوف من الفقر والموت)، وزمن التمرّد عند مروان (الرغبة في تغيير وضعه). لكن هذه الأزمنة النفسية المختلفة تلتقي في نهاية مأساوية واحدة.

- المفارقة الزمنية: المفارقة الكبرى هي أن الشخصيات تريد الهروب من الموت البطيء في المخيمات، فتذهب إلى موت أسرع في الخزان. وكأن غسان يقول: من يهرب من الموت يجد الموت، ولكن من يواجه الموت قد ينجو. وهذا هو جوهر الاحتجاج في الرواية.

- الزمن المستقبلي: الرواية تنتهي باستباق مفتوح: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟".

هذا السؤال ليس مجرد استفسار، هو دعوة للفعل المستقبلي، وتحويل للموت السلبي إلى وعي نضالي.

وقد لاحظ الناقد عادل الأسطة أن هناك التباساً أحياناً في تحديد الزمن الروائي، حيث يشير إلى أن "المتن يخبرنا أن سفر الفلسطينيين الثلاثة إلى الكويت كان بعد عشر سنوات تماماً – أي في 1958، لا في سنة 1963" (سنة النشر).

وهذا يؤكد أهمية التمييز بين زمن النشر وزمن الأحداث في الرواية.

ج. تحليل الشخصيات ودلالاتها الزمنية

أود أن أتوقف عند دلالة اختيار غسان لثلاث شخصيات من أجيال مختلفة، لأن هذا الاختيار يحمل بعداً زمنياً عميقاً:

- أبو قيس: يمثل الزمن الماضي، جيل النكبة الذي عرف فلسطين وفقدها. حنينه إلى الماضي يجعله عاجزاً عن رؤية الحاضر بوضوح، وهو أكثر الشخصيات تمسكاً بالذاكرة.
- أسعد: يمثل زمن الحاضر، جيل المخيمات الذي ولد في المنفى ولم يعرف فلسطين إلا عبر الحكايات. هو الأكثر اندفاعاً نحو المستقبل، لكنه أيضاً الأكثر جهلاً بطبيعة المخاطر.
- مروان: يمثل زمن المستقبل، الجيل الشاب الذي يحمل هموم أسرته ويحاول تغيير واقعه. لكنه مثل الآخرين، يقع في فخ الحلول الفردية.

هذه الأجيال الثلاثة مجتمعة في الخزان، تمثل التاريخ الفلسطيني كله، الذي يسير نحو الموت لأنه يهرب من مواجهة أسبابه الحقيقية. وهذا ما يجعل الرواية كما يصفها النقاد، "صراخاً شرعياً مفقوداً"، و "صوتاً فلسطينياً يختنق داخل عربة يقودها أبو الخيزران".

د. أبو الخيزران وزمن القيادة الفاشلة

شخصية أبي الخيزران في تحليلي من أعقد الشخصيات في أدب غسان، لأنها تحمل دلالة زمنية مزدوجة. فهو من جهة، زمن الماضي الذي هُزم في 1948 وفقد رجولته، لكنه ما زال يتنطح للقيادة.

ومن جهة أخرى هو زمن الحاضر الفاسد الذي يتاجر بآلام الناس من أجل مصالحه الشخصية. وقد أشار الناقد عادل الأسطة إلى خطأ شائع حول هذه الشخصية، حيث يذهب بعض الباحثين إلى أن عنوان الرواية يدل على فقدان الرجولة، لكن "عدا أن عنوان الرواية لا يدل على أن أبا الخيزران فاقد الرجولة، فنحن نعرف هذا من المتن، فإن الرجل انضم إلى المجاهدين ولبى دعوتهم وقاد المصفحة وفي المعركة فقد رجولته".

واللافت أنَّ أبا الخيزران يتحكم بالزمن في الرواية:

هو الذي يقرر متى يدخلون الجمرك، ومتى يغلق الخزان ومتى يفتحه. أي أنه يتحكم بزمن الحياة والموت للشخصيات. وهذا الرمزية تشير إلى أن القيادة التي لا تتحمل مسؤوليتها تحكم بزمن الآخرين، وتقرر مصيرهم دون أن تشاركهم في المخاطر.

وفي نهاية الرواية، حين يعود أبو الخيزران ليستولي على ما في جيوب الموتى، نرى انكشاف الزمن الحقيقي للقيادة الفاشلة:

إنه زمن الاستغلال لا زمن التضحية، زمن المصلحة لا زمن القضية. وهذه الرسالة في سياق مرحلة الاحتجاج، كانت موجهة إلى كل من يتاجر بالقضية الفلسطينية من موقع القيادة الزائفة.

هـ. السؤال الختامي: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟"

ينتهي الجزء الأول من الرواية بالسؤال المصيري الذي يلقيه أبو الخيزران على الجثث الثلاث: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟". وهذا السؤال في رأيي هو قلب الرواية النابض، وهو اللحظة الزمنية التي تحول الرواية من رثاء إلى احتجاج.

فالسؤال لا يوجهه غسان إلى شخصياته فقط، إنما إلى كل فلسطيني عاش عشر سنوات من الركود والاستسلام.

إنه يقول:

لماذا لم تدقوا جدران الزمن الذي حبسكم؟ لماذا قبلتم الموت صامتين؟ ما دام الموت هو المحق بكم، فلماذا لا تموتون وأنتم تصرخون وتدقون وتقاومون؟

وهذا السؤال هو بالضبط الانتقال الزمني من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية.

ففي المرحلة الأولى كان السؤال: كيف نعيش؟ وفي هذه المرحلة أصبح السؤال: لماذا نموت صامتين؟ وهذا التحول في السؤال هو جوهر الاحتجاج.

وكما يصفها النقاد: "إنها رواية من يصم أذنيه عن نداء الأرض... نداء الثورة". فمن يصم أذنيه عن زمنه، يحكم على نفسه بالموت.

ثالثاً: رواية "ما تبقى لكم" (1966):

زمن الساعة – النعش والتحرر من الماضي

أ. من العجز إلى الفعل: استكمال مسار الاحتجاج

إذا كانت "رجال في الشمس" قد انتهت بسؤال مفتوح عن سبب الصمت، فإن رواية "ما تبقى لكم" تحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال رحلة التحرر من الماضي. وكما يقال، "من نقطة العجز... مع الموت البطيء أيضاً تبتدئ رواية غسان كنفاني التالية (ما تبقى لكم)".

إنها تواصل الغوص في الجحيم الفلسطيني، لكنها هذه المرة تقدم إمكانية للخلاص.

تدور الرواية حول أربع شخصيات رئيسية: حامد، مريم، زكريا، والزمن نفسه (الزمن كشخصية درامية بامتياز).

حامد ومريم أخ وأخته، هُجّرا من يافا إلى غزة، وانفصلا عن أمهما التي بقيت في الضفة الغربية.

مريم تتزوج من زكريا "النتن" الذي خان الفدائيين، ويعيش الجميع في حالة من العجز والضياع والإحباط.

وقد أشار الناقد راسم المدهون إلى أن الرواية "تقبض أحداثها على قضية وطنية، ولكنها تراها وترى جزئيات حدثها في المشاعر الشخصية، وحتى في التكون الفكري والسياسي لأبطالها، مثلما تتحرك خلالها الأحداث على إيقاع الحقائق الوطنية الكبرى".

وهذا يفسر كيف أن الزمن في الرواية يتشابك بين البعد الشخصي والوطني، وكيف أن رحلة حامد من غزة إلى الضفة الغربية أصبحت "مساحة الصراع مع عدوه"، حيث كان النقب يمثل "الحاجز المدجج بأسلحة الموت والتدمير، الذي يفصل غزة عن الخليل وأخواتها".

ويضيف المدهون: "في 'ما تبقى لكم' تدهشنا موهبة الكاتب الشهيد في القبض على 'النكبة'، غول الألم ومنبعه، ومعه القبض على ما أنتجه ذلك الألم العظيم من آلام لا تحصى، ولا يمكننا تجاهل آثارها في نفوس أبطاله من شخصيات الرواية".

ب. رمز الساعة – النعش: الزمن المسجون

الرمز الأبرز في الرواية هو الساعة المعلقة على جدار غرفة النوم. لكن هذه الساعة ليست ساعة عادية، هي نعش خشبي، حيث يقول الراوي:

"تدق... تدق... داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير...".

ويؤكد الناقد حاتم استانبولي على هذه الرمزية بقوله: "شبه الساعة بالتابوت الصغير الذي علقها حامد وحرك بندولها في إعلان لبدء زمن جديد، بمكان جديد يحمل فكرة العار التي فرضت عليه الهروب".

ويضيف: "الزمان والمكان في رواية ما تبقى لكم استخدمهما غسان بإبداع في رسم لوحات الرواية عبر رمزية الساعة تطابق الزمان والمكان، فهي كانت التابوت الصغير الذي كانت دقاتها دق. دق. تشير إلى رمزية الزمان".

وهنا أود أن أقدم لهذا الرمز، لأنه يمثل جوهر رؤية غسان للزمن في هذه المرحلة:

- الساعة النعش: تعني أن الزمن في حياة الفلسطينيين أصبح زمن موت، حيث تدق الساعة كدقات النعش، لا كدقات الحياة. فكل دقة تذكر بالزمن الماضي الذي انقضى، وبالحاضر الذي لا يتقدم.
- الساعة المعلقة: ترمز إلى توقف الزمن، أو إلى استمراره بطريقة ميكانيكية فارغة، حيث لا معنى للدقات إلا التذكير بالموت.
- الساعة قيد: تعني أن الماضي أصبح سجناً يمنع الشخصيات من التحرك نحو المستقبل. فكلما نظروا إلى الساعة تذكروا ما فقدوه، وما لم يعودوا قادرين على استعادته.

يقول حامد في لحظة التحرر: "وفجأة بدت لي الساعة غير ذات نفع، حيث لا أهمية هنا للعتمة والضوء، وفي هذا العالم الممتد إلى الأبد من السواد القاتم، تبدو الساعة مجرد قيد حديدي يفرز رعباً وترقباً مشوباً، وفي اللحظة التالية فككتها بهدوء وطرحتها، وسمعتها تخبط بصوت مخنوق في الأرض".

هذا المشهد في تحليلي هو اللحظة المحورية في الرواية، وهو التحول الزمني الأكبر في أدب غسان. فبكسر الساعة (أو فكها وطرحها)، يتحرر حامد من زمن النعش، ويدخل إلى زمن جديد، وإن كان لا يزال يبحث عن اتجاهه.

وأما الزمان فهذا المارد الذي خلقه غسان ليكون الإيقاع النابض في الرواية... يتحول في لحظة العجز والفقد والضياع إلى دقات خوف وشلل وقيد... يبدأ لدى (حامد) أول عهده بالصحراء نبضاً للخوف والفزع والتردد... ثم لا يلبث أن ينزعه من معصمه ويلقي به (الساعة) في الرمال ليخمد صوت الرعب في داخله، ولتنشأ بعد ذلك حالة من الخلاص.

ويشير الناقد حاتم استانبولي إلى تطور رمزية المكان والزمان بين هذه الرواية ورواية "أم سعد" لاحقاً، حيث "تحولت رمزية المكان والزمان في رواية أم سعد (التي استوحى شخصياتها من شخصيات واقعية) إلى فكرتي الكرامة والمقاومة وإبراز الهوية، وحولت المكان من مسرح لجريمة العار والهزيمة ما قبل جريمة النكبة وهزيمة حزيران إلى مسرح لاستعادة الهوية والكرامة والمبادرة والمقاومة".

ج. تحليل تطور الزمن في الرواية

يمكن تتبع تطور علاقة الشخصيات بالزمن في الرواية على النحو التالي:

- حامد: مسجون في الماضي، يعلق الساعة كتذكار للألم، ويكسر الساعة ويلقيها. يتحرر من قيد الماضي، لكنه يواجه خطر الموت في الصحراء.
- مريم: تعيش زمناً متوقفاً مع زكريا، تشعر بالغرق في المستنقع. تتحول دقات الساعة لديها من جنائزية إلى تحريضية. تتخلص من زكريا (رمز المستنقع) وتجد الخلاص.
- زكريا: يمثل زمن الخيانة والاستسلام، متوقف في لحظة جبنه لا يتغير، بل يُقتل. يمثل الزمن الذي يجب التخلص منه.

كما يلاحظ الناقد راسم المدهون: "يروق لي كثيراً أن أقارن دائماً بين 'ما تبقى لكم' وقبلها 'رجال في الشمس' وبين 'عائد إلى حيفا'، خصوصاً في تناول الرواية الأخيرة لمسألة المولد والانتماء. ولا أبالغ إذ أقول إن مفتاح الضوء لمصائر كل أولئك الأبطال الروائيين والإنسانيين قد وضعه غسان في روايته 'أم سعد'، حيث هناك بالذات روح المقاومة ووهجها".

وكما أرى فإن تحوّل دقات الساعة من جنائزية إلى تحريضية هو أهم تغير زمني في الرواية. ففي البداية كانت دقات الساعة تذكر بالموت، وتجعل الشخصيات تشعر بالعجز. أما بعد التحرر من قيد الماضي، فتصبح الدقات دعوة للحركة والنضال والفعل.

د. حامد في الصحراء: زمن الفعل لا الموت

بعد أن يتخلّص حامد من الساعة يخرج إلى الصحراء، ويبدأ رحلته في زمن الفعل، حيث يكتشف أنه ليس لديه ما يخسره. وهذه النقطة حاسمة في تطور المضامين الزمنية:

فالخسارة الكاملة هي نقطة البداية للفعل الحقيقي. يقول النص: "مع توغله في أرض الفعل لا الموت، أرض الحركة والانتشار، يكتشف أنه ليس لديه ما يخسره، وأن الأمور، إذا ما استمر في أرض الفعل، لا بد وأن تدور لصالحه".

وهذه الجملة في قراءتي تعكس تحولاً جذرياً في مفهوم الزمن عند غسان: ففي المرحلة الأولى كان الزمن هو العدو الذي يقتل الفلسطيني. وفي المرحلة الثانية يبدأ الزمن بالتحول إلى حليف، شرط أن يمتلك الإنسان الجرأة على الفعل.

وأرى هذا التحول يتوّج في نهاية الرواية، عندما يأسر حامد جندياً صهيونياً في الصحراء، مقلوباً بذلك أدوار الضحية والجلاد، ومحولاً زمن الركود إلى زمن الفعل. وقد أشار الناقد حاتم استانبولي إلى أن "السكين هي العامل المشترك الذي غسل عار مريم، وبذات الوقت حسم أفضلية المكان لصالح حامد"، مشيراً إلى أن المكان الصحراوي الذي كانت فيه المجابهة بين حامد والجندي يميل لصالح الجندي الممتلك للسلاح، لكن "المكان والتصاق حامد به وفر له عامل المفاجأة الذي قلب المعادلة لصالح حامد".

هـ. الماضي والحاضر والمستقبل: جدلية الأزمنة في الرواية

يمكن تلخيص العلاقة بين الأزمنة في "ما تبقى لكم" في:

- الماضي: جحيم وفقدان وندم، لكنه أيضاً يحتوي على جذور القوة (الأم، فلسطين). في البداية سجن. في النهاية مصدر قوة يتم تجاوزه وليس نسيانه.
- الحاضر: معاناة ويأس، مستنقع العجز (زكريا، المخيمات، غزة). يجب التحرر منه عن طريق كسر الساعة، والتخلص من رموز الجمود.
- المستقبل: غير مؤكد، لكنه ممكن. الخلاص في الفعل، وليس في الحلم. يجب أن يُصنع باليد، وليس أن يُنتظر.

رابعاً: من الاحتجاج إلى الثورة: بذور التحول

في ختام هذه المرحلة، يمكن القول إن غسان كنفاني قد أنجز تحولاً كبيراً في المضامين الزمنية لأعماله:

1. في "رجال في الشمس": هدم زمن الهروب الفردي، وأظهر أن الهروب من الموت لا يوصل إلا إلى موت آخر.

2. في "ما تبقى لكم": هدم زمن الماضي المسجون (الساعة – النعش)، وبدأ في بناء زمن الفعل، وإن كان لا يزال في بداياته.

وهكذا تكون هذه المرحلة قد هيّأت الأرضية للمرحلة الثالثة، حيث يتحول الاحتجاج إلى ثورة، ويصبح الزمن حليفاً للمقاومة، بدلاً من أن يكون عدواً يقتل الأمل.

وهنا أستطيع أن أقول إن أهم إنجاز لمرحلة الاحتجاج والاستنكار هو تحويل السؤال من "كيف نعيش" إلى "لماذا نموت صامتين"، ثم إلى "كيف نصنع زمننا بأيدينا". وهذا التطور في السؤال هو جوهر تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني.

خامساً: خلاصة المرحلة الثانية

- نمط الزمن: زمن متوتر متشظٍ، يتحول من الدائرة المغلقة إلى خط مفتوح نحو المستقبل.
- علاقة الشخصيات بالزمن: الشخصيات تبدأ بالتحرك، لكن حركتها خاطئة في البداية (الهروب)، ثم تتحول إلى فعل صحيح (كسر الساعة، مواجهة العدو).
- دلالة الماضي: الماضي لا يزال ثقيلاً، لكن الشخصيات تبدأ في كسر قيوده.
- دلالة الحاضر: الحاضر هو ساحة الصراع، حيث يتحول الوجع إلى وعي.
- دلالة المستقبل: المستقبل يتحوّل من حلم وهمي (الكويت) إلى مشروع يمكن صنعه باليد.
- الرمز الزمني الأبرز: الخزان – القبر (رجال في الشمس)، والساعة – النعش (ما تبقى لكم).
- السؤال المحوري: "لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟". سؤال الفعل والمواجهة.

سادساً: بين المرحلتين: نظرة مقارنة

قبل الانتقال إلى المرحلة الثالثة، أود أن أقدم مقارنة سريعة بين المرحلة الأولى والثانية:

العنصر	مرحلة الركود والاستسلام	مرحلة الاحتجاج
الزمن	دائري مأساوي	متوتر . متشظٍ
البطل	فرد منغمس في ذاته	جماعة تمثل الأجيال المختلفة
السؤال	كيف نعيش؟	لماذا نموت صامتين؟
الموت	قدر لا مفر منه	سؤال يجب مواجهته
الماضي	جرح وحنين	سجن يجب كسره
المستقبل	غائب أو وهمي	مشروع يمكن صنعه
الرمز	الليل، الرسالة، الأسود الصغير	الخزان، الساعة، النعش

المرحلة الثالثة:

الانبعاث والثورة (1967-1972)

تمهيد

تمثل المرحلة الثالثة في أدب غسان كنفاني ذروة التطور الزَّمني في مشروعه الإبداعي، حيث تتحول العلاقة مع الزمن من سلبية مأساوية إلى إيجابية فاعلة. فبعد أن كان الزمن في المرحلة الأولى وعاء للندم والألم، ثم في المرحلة الثانية ساحة للاحتجاج والتساؤل، يصبح في هذه المرحلة حليفاً للثورة وأداة للتحرر. وكما سنرى، فإن هذه المرحلة تعكس تحولاً جذرياً في وعي غسان، حيث ينتقل من نظرة تشاؤمية إلى رؤية تاريخية جدلية، تمكنه من رؤية العلاقة العضوية بين الماضي والحاضر والمستقبل.

تبدأ هذه المرحلة بنكسة حزيران 1967، ذلك الحدث المفاجئ الذي أحدث زلزالاً في الواقع العربي والفلسطيني، لكنه حمل في طياته، كما يرى غسان، بذور الانبعاث. فالهزيمة التي كشفت ضعف الأنظمة العربية كانت أيضاً لحظة صحوة للشعوب، ودفعة نحو الفعل الثوري. وفي هذه الفترة بالذات، يكتب غسان أعماله الأكثر نضجاً: رواية "أم سعد" (1969)، ورواية "عائد إلى حيفا" (1969)، والمجموعة القصصية "عن الرجال والبنادق" (1968).

وسأركز في هذا الفصل على رواية "أم سعد" باعتبارها النموذج الأكثر تعبيراً عن المضامين الزمنية في هذه المرحلة، مع الإشارة إلى بعض قصص مجموعة "عن الرجال والبنادق" التي تكمل الصورة.

أولاً: خصائص المرحلة الزمنية

تتميز هذه المرحلة بعدة خصائص زمنية تمثل نقلة نوعية عما سبق:

- تحول الزمن من عدو إلى حليف: ففي المرحلة الأولى كان الزمن يقتل الفلسطيني، وفي الثانية كان يضغط عليه، أما في الثالثة فيصبح الزمن أداة للتحرر، حيث يتحول الوعي الزمني من السلبية إلى الإيجابية.
- الرؤية الجدليّة للتاريخ: يكتشف غسان أن الماضي ليس مجرد جرح أو سجن، هو أيضاً مخزون من القوة، وفيه جذور المقاومة التي تمتد من ثورة 1936 إلى ثورة 1965. وهذه الرؤية الجدلية تمكنه من رؤية العلاقة بين الماضي والحاضر كعلاقة عضوية، وليس كعلاقة قطيعة.
- الانتقال من الفرد إلى الجماعة: فبينما كانت المرحلة الأولى تركز على الفرد وذاكرته، والمرحلة الثانية على مجموعة محدودة من الشخصيات، فإن المرحلة الثالثة تقدم الشعب بأكمله كبطل جماعي. وأم سعد ليست فرداً، هي رمز للشعب وللأم الفلسطينية وللجماهير الكادحة.

– الزمن المفتوح: تختلف البنية الزمنية في هذه المرحلة عن سابقاتها، حيث تصبح النهايات مفتوحة على المستقبل، والأمل حاضراً بقوة، والموت ليس نهاية، بل محطة في طريق النضال.

تتحدث الدكتورة أفنان القاسم عن خصوصية هذه المرحلة في أعمال غسان: "صاحب الأدب الفلسطيني هذا الكفاح في مراحله المرة كما في آماله الكبار... وكانت مصاحبته له بصفته عاكساً ومحرضاً، فأعاد إلى المقاتل عزته، بإسقائه جدول الأمل الضئيل الذي أوشك على النضوب بعد النكبة: وذلك مع صورة الفلسطيني الذي عاش حقاً تجارب أليمة غير أنه لم يتخل أبداً عن كرامته الإنسانية، وعزم على ألا يتيح لقوى الأعداء الفرصة لسحقه".

ثانياً: رواية "أم سعد" (1969):

زمن الانبعاث والتضحية الجماعية

أ. أم سعد: الأم – الشعب – المدرسة

تبدأ الرواية بإهداء يحمل دلالة زمنية عميقة: "إلى أم سعد – الشعب والمدرسة". ففي هذا الإهداء يعلن غسان أن أم سعد ليست مجرد امرأة، هي رمز ثلاثي الأبعاد:

هي الأم التي تنجب الأبناء، وهي الشعب الذي يحمل هموم الأمة، وهي المدرسة التي تعلّم الجماهير معنى النضال.

وهذا الإهداء في تحليلي يمثل تحولاً زمنياً أساسياً. ففي المرحلة السابقة كانت الشخصيات تبحث عن معلم (ليلى في "شيء لا يذهب"، صديق الشهيد في "منتصف أيار")، لكن المعلم كان غائباً أو عاجزاً.

أما في "أم سعد"، فالمعلم حاضر، وهو الشعب نفسه، والأم التي تربي أبناءها على حب الوطن والتضحية من أجله.

ويؤكد غسان في مدخل الرواية أن "أم سعد هي امرأة حقيقية أعرفها جيداً، وما زلت أراها دائماً وأحادثها وأتعلم منها...".

وهذا التأكيد على واقعية الشخصية، في سياق هذه المرحلة، يحمل دلالة زمنية مهمة:

فغسان لم يعد بحاجة إلى الرمزية المعقدة التي استخدمها في رواياته السابقة (الخزان، الساعة – النعش)، أصبح يجد في الواقع نفسه، وفي الناس العاديين، ما يعبر عن زمن الثورة بشكل أصدق.

ب. دالية أم سعد: رمز الزمن النامي

تبدأ الرواية بمشهد تأسيسي: "قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً".

هذه الدالية التي تغرسها أم سعد ليست مجرد نبتة، هي رمز للزمن الجديد، زمن النماء والانبعاث.

وهنا أود أن أتوقف عند دلالة هذا الرمز الزمني بعمق:

- النبتة والزمن: أم سعد تدرك أن النبتة لا تنمو بين عشية وضحاها، إنما تحتاج إلى زمان. وهذا الوعي يعكس نضجاً زمنياً جديداً لدى الفلسطيني. ففي المرحلة السابقة، كان الفلسطيني يريد الهروب الفوري "رجال في الشمس" أو التحرر السريع كسر الساعة في "ما تبقى لكم". أما في هذه المرحلة فقد أدرك أن التغيير يحتاج إلى وقت، وأن الثورة مثل النبتة، تحتاج إلى صبر ورعاية.
- الدّالية والأرض: النبتة تنمو في الأرض، والأرض هنا هي فلسطين. فغرس الدالية هو غرس للجذور في التراب الفلسطيني بعد طول غياب. وهو أيضاً رفض للتشرد، وإعلان أن الفلسطيني سيبقى مرتبطاً بأرضه حتى لو كان بعيداً عنها.
- الدالية والمستقبل: الجملة "وفي أعوام قليلة تأكل عنباً" تحمل استباقاً نحو المستقبل، لكنه استباق إيجابي، مبني على الثقة بالنمو والانبعاث، وليس على الوهم كما كان الحال في "رجال في الشمس".

وتتوج هذه الرمزية في نهاية الرواية، حين تنتهي بكلمات أم سعد: "برعمت الدالية يا ابن العم... برعمت...". فالدالية التي كانت يابسة في البداية قد برعمت ونمت. وهذا البرعم هو رمز الانبعاث، الذي يعكس تحولاً زمنياً من الموت إلى الحياة، ومن الجمود إلى الحركة، ومن اليأس إلى الأمل.

ج. بنية الرواية الزمنية: لوحات زمنية متصلة

تتكون رواية "أم سعد" من تسع لوحات منفصلة، لكنها تصب في النهاية في معنى عام واحد. وهذه البنية الزمنية المفتوحة التي تسمح بالزيادة والنقصان دون أن يضر ذلك بالسياق الروائي، تعكس انفتاح الزمن في هذه المرحلة، حيث لم يعد الزمن مقفلاً أو دائرياً، فقد أصبح ممتداً وقابلاً للتطور.

ويمكن تحليل الأزمنة في الرواية من خلال تتبع اللوحات التسع:

- الأولى: أم سعد والحرب التي انتهت: بعد حرب 1967، زمن الراديو. نقد لزمن الكلام والوعود، والدالية كبداية زمن جديد.
- الثانية: خيمة الذل وخيمة المقاومة: زمن المقارنة بين الماضي والحاضر. الانتقال من زمن الاستسلام إلى زمن الكرامة.
- الثالثة: المخيم والمطر: زمن الصمود في مواجهة الطبيعة والاحتلال. التحرك الجماعي بدلاً من الانتظار الفردي.
- الرابعة: نحو الكرامة: 21 آذار 1968 (معركة الكرامة). الكرامة اسماً ومضموناً، التحول من النكسة إلى الانبعاث.

- الخامسة: الذين هربوا والذين تقدموا: زمن تواجد الفدائيين في بيروت. التمايز بين زمن الهروب وزمن المواجهة.
- السادسة: الرسالة بعد 32 سنة: ثورة 1936 والحاضر. ربط الماضي بالحاضر، استخلاص الدروس.
- السابعة: الحلم: زمن التفاؤل والنصر. المستقبل كأمل يمكن تحقيقه.
- الثامنة: المواجهة: زمن الفعل الثوري. تحويل الألم إلى قوة.
- التاسعة: العودة: زمن النصر القادم. المستقبل المفتوح، استمرار النضال.

د. تحليل الأزمنة في الرواية

يمكن تمييز ثلاثة مستويات زمنية متداخلة في "أم سعد":

1. المستوى الأول:

الزمن التاريخي الكبير: يمتد من ثورة 1936 إلى الحاضر (أواخر الستينات). يشمل النكبة (1948)، النكسة (1967)، ومعركة الكرامة (1968). هذا الزمن يُستعاد عبر الذاكرة والحوار، لكنه لا يبقى في الماضي، بل يُستدعى لفهم الحاضر وبناء المستقبل.

2. المستوى الثاني:

الزمن الشخصي للشخصيات: زمن أم سعد الذي يمتد من شبابها إلى الأربعين. زمن سعد (ابنها) الذي ينتقل من طفل إلى فدائي. زمن أبو سعد الذي يتحول من رجل منهك إلى أب فخور بابنه الفدائي. هذه الأزمنة الشخصية تتقاطع مع الزمن التاريخي، وتجسد التحولات الجماعية في حياة الأفراد.

3. المستوى الثالث:

الزمن الرمزي: زمن الدّالية (النمو والانبعاث). زمن البندقية (الكرامة والمقاومة). زمن الخيمة (التمييز بين خيمة الذل وخيمة العز). زمن الرسالة (الاتصال بين الأجيال، ربط الماضي بالحاضر).

وهذا التداخل بين المستويات الزمنية الثلاثة يعكس رؤية غسان الجدلية للزمن، حيث لم يعد الزمن خطاً واحداً، بل أصبح نسيجاً معقداً من الأزمنة المتداخلة والمترابطة.

هـ. أم سعد وصناعة الزمن الجديد

ما يميز أم سعد عن شخصيات المراحل السابقة هو قدرتها على صناعة زمنها بنفسها. ففي "رجال في الشمس"، كانت الشخصيات تنتظر أن يصنع لها المهرب زمنها (أبو الخيزران يتحكم بالزمن).

وفي "ما تبقى لكم"، كان حامد يحتاج إلى كسر الساعة ليبدأ في صناعة زمنه.

أما أم سعد فهي منذ البداية فاعلة، تصنع الزمن بيديها.

وهذا يتجلى في عدة مشاهد:

- غرس الدالية: هي التي تختار أن تغرس، وهي التي تنتظر أن تنمو، وهي التي تحتفل بالبرعم. الزمن هنا ليس مفروضاً عليها، هي من تصنعه.
- مواجهة المختار: هي التي تقف في وجه السلطة المحلية المتواطئة، ولا تخشى التحدي. إنها ترفض زمن الخنوع، وتصنع زمن المواجهة.
- إرسال سعد إلى المقاومة: هي التي تقرر أن تقدم ابنها للثورة، وهي التي تتحمل ألم الفراق والتضحية. إنها تصنع زمن النضال بدمها وعرقها.
- مواجهة الطبيعة والاحتلال: حين يسقط المطر والرصاص والأشواك، تكون هي في المقدمة لإزالة العوائق، وتقود الجماعة في مواجهة التحديات.

وهذا السلوك الفاعل يعكس في تحليلي تحولاً جذرياً في الوعي الزمني الفلسطيني. ففي المرحلة الأولى كان الفلسطيني يعيش زمناً مفروضاً عليه (زمن النكبة). وفي الثانية، بدأ يسأل عن زمنه (لماذا نموت صامتين؟). أما في الثالثة فقد أصبح يصنع زمنه بنفسه.

و. تحول الزمن من رمز للموت إلى رمز للحياة

في المرحلة الأولى، كانت رموز الزمن تعبر عن الموت:

الليل في "شيء لا يذهب"، أيار في "منتصف أيار"، النعش في "كعك على الرصيف"، الأسود الصغير في "الأخضر والأحمر".

وفي المرحلة الثانية، كانت الرموز تعبر عن الموت أيضاً، لكن مع إمكانية التحرر:

الخزان – القبر في "رجال في الشمس"، الساعة – النعش في "ما تبقى لكم".

أما في هذه المرحلة فإن رموز الزمن تعبر عن الحياة والنماء والانبعاث:

- الدالية: النمو، الانبعاث، الجذور في الأرض، المستقبل المثمر.
- البندقية: الكرامة، المواجهة، تحويل الخوف إلى قوة.
- البرعم: الحياة الجديدة التي تنبثق من اليابس، الأمل المتجدّد.
- خيمة الفدائيين: البديل عن خيمة الذل، زمن الكرامة والنضال.
- المفتاح (في عن الرجال والبنادق): الهُوية، الجذور، الاتصال بين الأجيال.

وهذا التحول في الرمزية الزمنية هو في رأيي الدليل الأوضح على تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني. فمن زمن الموت والجمود، انتقل غسان إلى زمن الحياة والحركة، دون أن يفقد وعيه بالمأساة، أو يقع في الفخاخ العاطفية.

ز. أبو سعد: تحول الزمن الذكوري

من اللافت في الرواية أن أبا سعد، الرجل الذي كان يبدو منهكاً وعاجزاً، يتحول أيضاً بفعل الواقع الثوري الجديد. ففي مشهد من اللوحة التاسعة، نراه يقف ملء قامته وينظر حوله بكبرياء ويصفق بحماس.

هذا التحول في شخصية أبي سعد يعكس في تحليلي تحولاً زمنياً على مستوى العلاقات الاجتماعية. ففي المرحلة السابقة كانت صورة الرجل الفلسطيني غالباً ما تكون صورة المهزوم أو الهارب أو العاجز.

أما في هذه المرحلة، فحتى الرجل الذي بدا ضعيفاً، يجد قوته في زمن الثورة، ويشارك في صناعة النصر ولو بالدعم المعنوي.

وهذا يعكس أيضاً تحولاً في مفهوم القيادة: ففي "رجال في الشمس"، كانت القيادة بيد أبي الخيزران، القائد الفاشل الأناني. أما في "أم سعد"، فالقيادة موزعة بين أم سعد (الأم الشعبية)، وسعد (الفدائي الشاب)، والجماهير التي تتحرك في المخيم. إنها قيادة جماعية لا فردية، تتوزع فيها الأدوار الزمنية بين مختلف الفئات.

ثالثاً: مجموعة "عن الرجال والبنادق" (1968):

استمرارية الزمن النضالي

أ. العودة إلى الماضي لبناء المستقبل

إذا كانت رواية "أم سعد" تركز على الحاضر الثوري ومستقبله، فإن مجموعة "عن الرجال والبنادق" تمثل عودة إلى الماضي، لكنها عودة مختلفة عن عودة المرحلة الأولى.

ففي المرحلة الأولى، كانت العودة إلى الماضي للندم والبكاء. أما في هذه المرحلة، فالعودة إلى الماضي هي لاستلهام القوة والجذور.

وتنقسم المجموعة إلى جزئين:

- القسم الأول: رواية قصيرة تاريخية عن فترة ما قبل النكبة، تروي قصة منصور وعائلته في معركة جدين.
- القسم الثاني: تسع قصص قصيرة، كل منها تقدم معادلة فنية لنضال الإنسان الفلسطيني، مرقمة من (1-9)، لتشكل صورة متكاملة للنضال الشعبي المستمر.

ب. المفتاح الذي يشبه الفأس: اكتشاف الهوية الزمنية

قصة "الصغير يكتشف أن المفتاح يشبه الفأس" هي في رأيي، من أبرز قصص غسان في هذه المرحلة، لأنها تقدم رؤية زمنية متكاملة في صورة رمزية بسيطة.

المفتاح هنا رمز للهوية والجذور والاستمرارية. إنه مفتاح دار جابر في فلسطين، كبير الحجم يشبه الفأس. توارثته العائلة أباً عن جد، مع البيت الذي توارثته. وبعد النكبة أصبح المفتاح معلقاً على الحائط في المنفى، ينتظر أن يكتشف الجيل الجديد أنه يشبه الفأس.

وهذا الاكتشاف الذي يقوم به حسّان، الطفل الذي ولد في المنفى، هو اكتشاف زمني بامتياز. فحسان الذي لم ير فلسطين، يكتشف عبر المفتاح أن هويته ليست مجرد اسم. هي جذور تمتد في الماضي، وأدوات (الفأس) تستخدم لبناء المستقبل.

يقول الراوي: "كنت منصرفاً بكليتي للسماع – الراديو – حين سقط أحد المسمارين من تحت المفتاح، فسقط جسد المفتاح، وأخذ ينوس جيئة وذهاباً على المسمار المثبت في حلقته... صاح حسّان مشيراً بإصبعه إلى المفتاح: – انظر، إنه يشبه الفأس!!!".

وهذا الاكتشاف يمثل اكتمال الدائرة الزمنية في أدب غسان. فالراوي في المرحلة الأولى كان يبحث عن "شيء لا يذهب" (القصة الأولى). وفي المرحلة الثانية، كان يحاول كسر الساعة للتحرر من الماضي. أما في هذه المرحلة، فقد اكتشف أن الماضي ليس شيئاً يجب نسيانه أو كسره، بل هو مصدر قوة يمكن استلهامه، وأن المفتاح (الهُوية) يمكن أن يكون فأساً (سلاحاً) إذا أحسن استخدامه.

رابعاً: تحولات الزمن في المرحلة الثالثة: نظرة مقارنة

يمكن تلخيص تحولات الزمن في المرحلة الثالثة عبر المقارنة مع المراحل السابقة:

العنصر	مرحلة الركود	مرحلة الاحتجاج	مرحلة الثورة
نمط الزمن	دائري مأساوي	متوتر متشظٍ	مفتوح متجه للمستقبل
علاقة الزمن بالبطل	مسجون بالماضي	يحاول الهروب/كسر القيد	يصنع زمنه بنفسه
دلالة الماضي	جرح وندم وحنين	سجن يجب كسره	جذور وقوة وإلهام
دلالة الحاضر	ذل وفقر وانتظار	معاناة واحتجاج	نضال وبناء ومواجهة
دلالة المستقبل	غائب أو مشوه	مؤجل وغير مؤكد	مشرق وممكن يصنع باليد
رمز الزمن	الليل، الرسالة،الأسود الصغير	الخزان، الساعة، النعش	الدالية، البندقية، المفتاح
البطل	فرد (أنا)	مجموعة (3–5)	جماعة/شعب/أم أسعد
السؤال	كيف نعيش	لماذا نموت صامتين	كيف نصنع زمننا

خامساً: الخلاصة التحليلية للمرحلة الثالثة

تمثل المرحلة الثالثة ذروة التطور الزمني في أدب غسان كنفاني، حيث تتحقق الجدلية التاريخية التي ظل يبحث عنها طوال مشواره الإبداعي. ففي هذه المرحلة لم يعد الزمن عدواً ولا سجناً، إنما أصبح أداة للتحرر ووعاء للنضال، وأفقاً للأمل.

ويمكن تلخيص أهم ما تم تحقيقه في هذه المرحلة على النحو التالي:

1. تحول الماضي من عائق إلى دافع: فبدلاً من أن يكون الماضي جرحاً ينزف، أصبح مخزوناً من القوة والتجارب التي تستلهم في الحاضر لبناء المستقبل.

2. تحول الحاضر من ألم إلى فعل: فبدلاً من أن يكون الحاضر مجرد معاناة يُهرب منها، أصبح ساحة للنضال والمواجهة وبناء الذات الجديدة.
3. تحول المستقبل من وهم إلى مشروع: فبدلاً من أن يكون المستقبل حلماً واهماً (الكويت في "رجال في الشمس")، أصبح مشروعاً يمكن تحقيقه بالإرادة الجماعية والتضحيات المستمرة.
4. تحول البطل من فرد إلى جماعة: فبدلاً من البطل الفردي المأسور في ذاته، ظهر البطل الجماعي (الشعب، أم سعد) الذي يصنع التاريخ بيديه.
5. تحول الرمز من الموت إلى الحياة: فبدلاً من رموز الموت والقبور (الخزان، النعش)، ظهرت رموز الحياة والنماء (الدالية، البرعم، المفتاح – الفأس).

وهكذا، تكون المرحلة الثالثة قد حققت ما ظل يبحث عنه غسان منذ بداية مشواره: زمن الفلسطيني الجديد، زمن الكرامة والانبعاث، زمن الثورة التي تصنع المستقبل، وليس زمن الركود الذي ينتظر الموت.

سادساً: بين المراحل الثلاث: رؤية تركيبية

بعد استعراض المراحل الثلاث بالتفصيل، يمكننا الآن تقديم رؤية تركيبية لتطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني:

المسار الزمني العام:

1. المرحلة الأولى (الركود) ← المرحلة الثانية (الاحتجاج) ← المرحلة الثالثة (الثورة)

المحطات التحولية الأساسية:

– الانتقال من "كيف نعيش؟" إلى "لماذا نموت صامتين؟":

في المرحلة الأولى، كان السؤال وجودياً فردياً. وفي الثالثة تحول إلى سؤال سياسي جماعي.

– الانتقال من "لماذا نموت صامتين؟" إلى "كيف نصنع زمننا؟":

في المرحلة الثانية، كان السؤال احتجاجياً ناقداً. وفي الثالثة تحول إلى سؤال بناء مستقبلي.

– الانتقال من الموت السلبي إلى الموت كتضحية:

ففي المرحلة الأولى كان الموت قدراً يُستقبل بصمت. وفي الثانية أصبح سؤالاً يُطرح. وفي الثالثة أصبح تضحية تُقدم في سبيل الحياة (استشهاد سعد، تضحيات أم سعد).

– الانتقال من الفرد إلى الجماعة:

ففي المرحلة الأولى كان البطل فرداً وحيداً. وفي الثانية أصبح مجموعة محدودة. وفي الثالثة أصبح جماعة شعبية واسعة.

– الانتقال من الرمز المأساوي إلى الرمز النضالي:

ففي المرحلة الأولى كانت الرموز تعبر عن الموت والألم. وفي الثانية عن السجن والبحث عن الخلاص. وفي الثالثة عن الحياة والنماء والثورة.

وهكذا يمكن القول إن غسان كنفاني قد أنجز في رحلته الإبداعية تحولاً زمنياً شاملاً، يعكس تحول القضية الفلسطينية نفسها من النكبة إلى الثورة. وقد كان هذا التحول ممكناً بفضل وعيه التاريخي الجدلي، وقدرته على تحويل التجربة الإنسانية الفردية إلى تجربة جماعية، والموت الفردي إلى تضحية جماعية تفتح آفاق الحياة.

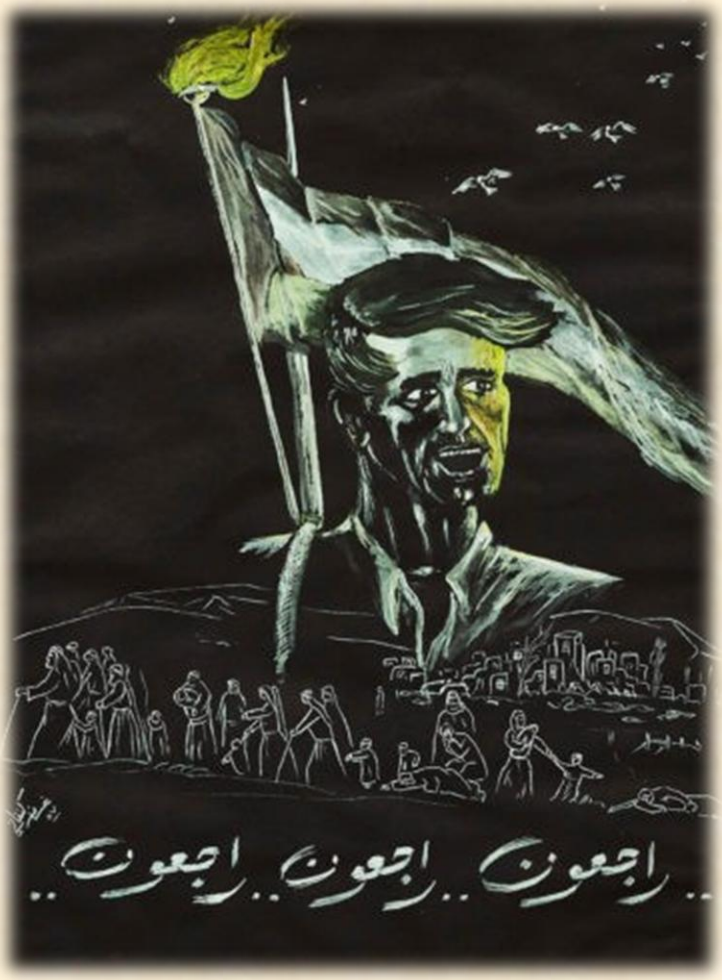

الخاتمة

تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني:

رؤية تركيبية

بعد هذه الرحلة في عالم غسان كنفاني الزمني، وبعد تتبعنا للمسار الذي قطعته المضامين الزّمنيّة في أعماله القصصية والروائية، يمكننا الآن أن نقف وقفة تأملية لنستخلص النتائج النهائية لهذه الدراسة، ولنرسم الصورة الكاملة لتطور الزمن في أدب هذا المبدع الفلسطيني الكبير.

لقد أرَّخ غسان كنفاني القضية الفلسطينية في مراحل تطورها المختلفة من خلال أبطال قصصه ورواياته مجتمعة، متتبعاً مسار التحول من الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون في الغربة والضياع، إلى حالة التمرد على الصمت والركود، ثم إلى الثورة على الأوضاع التي أوصلت الفلسطيني إلى هذا الدرك، وأخيراً إلى قطع الصلة بالماضي الذليل والتطلع إلى المستقبل الذي يستعيد فيه الفلسطيني كرامته وهويته المنشودة.

وهذا التأريخ الفني، كما رأينا، لم يكن مجرد توثيق للأحداث. كان رصداً دقيقاً لتطور العلاقة بين الإنسان الفلسطيني وزمنه.

إن عالم غسان كنفاني الفني لم يكن ساكناً طوال الوقت، ثمة انقلاباً كبيراً حدث في المضامين الزمنية في أعماله الروائية والقصصية منذ أن بدأ بناءه الفني حتى استشهاده. وهذا الانقلاب، كما حاولت أن أبين في هذا الكتاب، لم يكن انقلاباً شكلانياً أو تقنياً فقط. كان انقلاباً في الرؤية وفي الوعي وفي العلاقة مع التاريخ والمصير.

نصوص غسان كنفاني شاهدة على تطور الزمن

قبل أن ألخص نتائج تحليلي للمراحل الثلاث، أقدم هذه النصوص المختارة من أعمال غسان كنفاني، ليكون القارئ على مقربة من لغته الفريدة التي جسّدت تحولات الزمن الفلسطيني، ولتكون شاهداً حياً على ما توصل إليه الكتاب من نتائج:

- من رواية "عائد إلى حيفا" – سؤال الوطن بين الماضي والمستقبل

في رواية "عائد إلى حيفا"، التي تمثل قمة مرحلة الانبعاث والثورة، يطرح غسان سؤال الوطن الذي يتجاوز حدود الزمن، ويفرق بين من ينظرون إلى الوراء ومن يتطلعون إلى الأمام:

"سألت: ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة. أجل ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على الجدار؟ المزلاج النحاسي؟

شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟ الأبوة؟ البنوة؟ ما هو الوطن؟ بالنسبة لبدر اللبدة، ما هو الوطن؟ أهو صورة آية معلقة على الجدار؟ أنني أسأل فقط."

ثم يجيب عن سؤاله برؤية زمنية جوهرية تمثل جوهر التحول من مرحلة الركود إلى مرحلة الانبعاث:

"لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل، وهكذا كان الافتراق، وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح. عشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، وهم إنما ينظرون للمستقبل، ولذلك هم يصححون أخطاءنا، وأخطاء العالم كله..."

وفي موضع آخر من الرواية، يخاطب سعيد زوجته صفيّة بكلمات تختزل وعياً زمنياً عميقاً:

"أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله."

ويؤكد غسان في هذه الرواية أن الإنسان قضية، وأن استمرارية القضية هي ما يضمن استمرارية الزمن:

"إن الإنسان في نهاية الأمر قضية."

- من رواية "رجال في الشمس" – زمن الهروب والتساؤل المصيري

في رواية "رجال في الشمس"، التي تمثل ذروة مرحلة الاحتجاج والاستنكار، يصور غسان زمن الهروب الفردي الذي ينتهي بالموت، ويطرح السؤال المصيري الذي يفتح آفاقاً جديدة للوعي:

"لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟"

ويصف غسان مشهد الصحراء التي تبتلع الرجال وأحلامهم، حيث يجتمع الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة:

"كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وآمالهم وبؤسهم ويأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم. كما لو أنها آخذة في نطح باب جبار لقدر جديد مجهول."

وفي وصفه للذاكرة التي تعود بالمهاجرين إلى ماضيهم، يكتب غسان عن أبي قيس وهو يتذكر قريته:

"كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام، وقد اغتسلت بالماء البارد... الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطباً... الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً."

وفي مشهد الحوار بين المهرب السمين وأحد الرجال، يكشف غسان عن زمن الانتظار العقيم الذي عاشه الفلسطينيون:

"في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر... لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها... في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير... ماذا تراك كنت تنتظر؟"

- من رواية "ما تبقى لكم" – زمن الساعة – النعش والتحرر من الماضي

في رواية "ما تبقى لكم"، التي تمثل مرحلة الاحتجاج والبحث عن الخلاص، يجعل غسان من الزمن شخصية درامية رئيسية، حيث تتحول الساعة المعلقة على الجدار إلى نعش يرمز لسجن الماضي:

"ما تبقى لها. ما تبقى لكم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الموت. حساب الخسارة. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبّارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه، كله مؤجل، كله مؤجل."

ويصف غسان الصمت الذي لا يكون بلا صوت، كاشفاً عن زمن الغربة الذي يعيشه الفلسطيني:

"إن الصمت لا يكون بلا صوت وإلا لما كان ولما صار بالوسع أن يحس على هذه الصورة الفريدة، المفعمة بالغربة والوحشة والمجهول."

وفي لحظة المواجهة مع الصحراء، يعبر البطل عن وعيه الزمني الجديد:

"مرر شفتيه فوق التراب الدافئ: ليس بمقدوري أن أكرهك، ولكن هل سأحبك؟ أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة... إنني أختار حبك، إنني مجبر على اختيار حبك، ليس ثمة من تبقى لي غيرك."

- من رواية "أم سعد" – زمن الانبعاث والدالية التي تبرعم

في رواية "أم سعد"، التي تمثل ذروة مرحلة الانبعاث والثورة، تظهر الشخصية التي تصنع زمنها بنفسها، وتدرك أن النبتة لا تنمو إلا بالزمان:

"قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً.

وتختتم الرواية برسالة الأمل التي ترمز لتحول الزمن من الموت إلى الحياة:

"برعمت الدالية يا ابن العم... برعمت."

وتعبر أم سعد عن وعيها بزمن الحبس الذي عاشه الفلسطينيون طوال عشرين سنة:

"الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس... أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس، والمختار حبس... تتكلم أنت على الحبوس؟ طول عمرك محبوس."

وتجسد أم سعد نموذج الأم التي تلد الأبطال، كما تقول ببساطتها العميقة:

"هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ."

وتعبر عن إيمانها بأن التغيير ممكن حتى بعد طول انتظار:

"كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب! وها قد مرت 20 سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟"

خلاصة تطور المضامين الزمنية في المراحل الثلاث

انطلاقاً من تحليل النصوص السابقة والنصوص الأخرى التي تناولتها في الفصول السابقة، يمكنني تقديم خلاصة تطور المضامين الزمنية في المراحل الثلاث من خلال النقاط المتتابعة التالية:

المرحلة الأولى: مرحلة الركود والاستسلام (1956-1963)

- نمط الزمن: زمن دائري مأساوي يعيد إنتاج الألم نفسه، حيث يعيش الفلسطيني التجربة المؤلمة ذاتها يومياً دون أفق خلاص.
- علاقة البطل بالزمن: البطل مسجون في الماضي، يعيش الندم والحنين، غير قادر على الانفصال عن لحظة السقوط. كما في قصة "شيء لا يذهب" حيث يقول البطل: "لم أكن قط استحق ليلى... كنت جباناً أخاف الموت".
- دلالة الماضي: الماضي جرح ينزف، ومصدر ألم وندم، وليس فيه أي جانب إيجابي يمكن استلهامه.
- دلالة الحاضر: الحاضر ذل وفقر وانتظار سلبي، وحياة يومية تفتقر إلى المعنى كما عبر عنها غسان بـ "شراء الحياة بموت يومي".
- دلالة المستقبل: المستقبل غائب أو مشوه، لا أفق واضح للخلاص، والشخصيات لا تفكر فيه أو تفكر فيه كاستمرار للمعاناة.
- الرمز الزمني الأبرز: الليل، الرسالة، الأسود الصغير. كلها رموز تعكس توقف الزمن أو دورانه في حلقة مفرغة.
- طبيعة البطل: البطل فرد منغمس في ذاته، يستخدم ضمير المتكلم (أنا) للتعبير عن وعي فردي مأسور.
- السؤال المحوري: كيف نعيش في هذا الواقع؟ سؤال وجودي يبحث عن البقاء لا عن التغيير.
- أبرز الأعمال: "موت سرير رقم 12"، "أرض البرتقال الحزين"، "عالم ليس لنا"، وقصص "شيء لا يذهب"، "منتصف أيار"، "كعك على الرصيف"، "الأخضر والأحمر".

المرحلة الثانية: مرحلة الاحتجاج والاستنكار (1963-1967)

- نمط الزمن: زمن متوتر متشظٍ، يتحرك لكن دون وجهة واضحة، حيث تبدأ الشخصيات بالتحرك لكن حركتها خاطئة.
- علاقة البطل بالزمن: يحاول الهروب من الماضي أو كسر قيوده، لكنه لا يزال يبحث عن اتجاه صحيح.
- دلالة الماضي: الماضي سجن يجب التحرر منه، لكنه يبقى حاضراً في الذاكرة ويشكل عبئاً نفسياً.
- دلالة الحاضر: الحاضر معاناة واحتجاج وتململ، تبدأ الأسئلة تطرح بقوة وتتحول السلبية إلى نقض.
- دلالة المستقبل: المستقبل مؤجل وغير مؤكد، مصدر قلق وليس مصدر أمل، لكنه يبدأ في التشكل كسؤال.

- الرمز الزمني الأبرز: الخزان (القبر) في "رجال في الشمس"، والساعة (النعش) في "ما تبقى لكم".
- طبيعة البطل: مجموعة محدودة من الشخصيات (ثلاثة أو خمسة) تمثل أجيالاً وطبقات مختلفة.
- السؤال المحوري: لماذا نموت صامتين دون مقاومة؟ سؤال نقدي احتجاجي يفضح الصمت والاستسلام. كما في السؤال المصيري: "لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟"
- أبرز الأعمال: رواية "رجال في الشمس"، رواية "ما تبقى لكم".

المرحلة الثالثة: مرحلة الانبعاث والثورة (1967-1972)

- نمط الزمن: زمن مفتوح متجه نحو المستقبل، قابل للصنع والتشكيل، حيث يصبح الزمن حليفاً لا عدواً.
- علاقة البطل بالزمن: البطل يصنع زمنه بنفسه، يتحكم بمصيره، ويصبح فاعلاً لا منفعلاً.
- دلالة الماضي: الماضي جذور وقوة، مصدر إلهام واستلهام، يحتوي على دروس يمكن البناء عليها.
- دلالة الحاضر: الحاضر نضال وبناء ومواجهة وتحرر، ساحة للفعل الثوري الجماعي.
- دلالة المستقبل: المستقبل مشرق وممكن، يُصنع بالأيدي وبالتضحية، ويصبح مشروعاً قابلاً للتحقيق.
- الرمز الزمني الأبرز: الدالية (النمو والانبعاث)، البندقية (الكرامة والمقاومة)، المفتاح (الهوية والفأس).
- طبيعة البطل: جماعة شعبية واسعة، الشعب كله ممثلاً بأم سعد، والفرد يذوب في الجماعة.
- السؤال المحوري: كيف نصنع زمننا ونبني مستقبلنا؟ سؤال بناء مستقبلي يتحول من النقد إلى الفعل.
- أبرز الأعمال: رواية "أم سعد"، رواية "عائد إلى حيفا"، مجموعة "عن الرجال والبنادق".

من الركود إلى الثورة: مسار التحول الزمني

أولاً: المرحلة الأولى (الركود والاستسلام):

برزت أعمال غسان القصصية لتصرخ في وجوهنا، لتعبّر عن قضيتها دون أن يكون بوسعها أن تعطي حلولاً أو حتى أن ترسم سؤالاً يمكن أن يجاب عنه. إنها مرحلة الذهول والصدمة أمام ما حدث، مرحلة المفاجأة المرعبة والهرب السريع والمقاومة التي انطفأت، ثم الواقع المستجد بكل ما فيه من تعاسة وألم. وقد ظهرت هذه الملامح جلية في مجموعاته القصصية الثلاث، حيث ساد زمن الذاكرة والندم والحنين، وطغى الشعور بالعار والخجل، وتركز الاهتمام على الفرد المأسور في ماضيه.

ثانياً: المرحلة الثانية (الاحتجاج والاستنكار):

بدأ غسان يحتج وينكر الصمت الفلسطيني خاصة والعربي عامة، طوال هذه المدة الطويلة من الجمود. وقد جاءت أعماله لتصور بداية التحرك الفلسطيني، خاصة روايته "رجال في الشمس" التي أراد من خلالها أن يصور التحرك والرفض، وفي نفس الوقت أن يصحح المسير ويبين إلى أين يجب أن يكون التحرك.

فحلم الوصول والتحرك إلى خارج الوطن، كما بينت الرواية، هو الهلاك بعينه. وتأتي نهاية الرواية المفتوحة بسؤالها المصيري "لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟"

لتعلن ميلاد الرفض الفلسطيني والتمرد، مؤكدة أن ما تبقى للفلسطينيين سوى الذل والعار والفقر والضياع، فتحركوا فلن تخسروا شيئاً لأنه لم يعد هنالك شيء تخسرونه. وتكمل رواية "ما تبقى لكم" هذا المسار بتقديم إمكانية التحرر من الماضي عبر كسر رمز الزمن المسجون (الساعة – النعش).

ثالثاً: المرحلة الثالثة (الانبعاث والثورة):

هذه المرحلة هي الأكثر إشراقاً في مسار غسان الزمني، وهي مرحلة مهمة في تاريخ الصراع العربي الفلسطيني. فقد وسع غسان أرضية الصراع خاصة بعد هزيمة حزيران 1967، وفي هذه المرحلة تعاود القضية الفلسطينية البروز إلى قمة الحدث، وتأخذ دورها الصحيح ومكانتها بين أهم القضايا التي تستأثر باهتمام العالم.

لقد اندحرت الأنظمة في حزيران بجيوشها، وتقدمت الشعوب لتأخذ دورها ومكانها التاريخي، لتكون في طليعة صناعة الحدث منذ ذلك التاريخ. وفي هذه المرحلة يكتب غسان رواية "أم سعد" التي تمثل ذروة التحول الزمني، حيث يصبح الفلسطيني صانعاً لزمنه، والأمل حاضراً بقوة، والموت تضحية وليس قدراً، والماضي مصدر قوة وليس جرحاً.

وتكمل مجموعة "عن الرجال والبنادق" هذه الرؤية بربط الحاضر بجذوره في الماضي، وتأكيد استمرارية النضال الفلسطيني من ثورة 1936 إلى ثورة 1965 وما بعدها.

حزيران: الانبعاث الذي يبشر بانبعاث أمة

يقف شهر حزيران 1967 في قلب هذه المرحلة كعلامة فارقة في تطور المضامين الزمنية عند غسان. فحزيران هذا، رغم قسوته وألمه، كان بالنسبة لغسان بداية الانبعاث لا نهاية الأمل.

وكما يوصف في النقد الأدبي: "حزيران هذا الانبعاث يبشر بانبعاث أمة. مهما تكن المرحلة صعبة شاقة تظل أفضل من حياة القبور". إن غسان كنفاني يبشر بالانبعاث الجديد للأمة، إنه قيامة في مواجهة المراحل السابقة، وتخطيها نحو حلم الدولة، ورفض حكم الموت المقرر لهذا الشعب.

وفي هذه المرحلة يقرر غسان الاختيار ويعتبره لزاماً ووجهة لكل فلسطيني. فإن اختار الفلسطيني، فإنه حتماً سيختار الحياة التي تمثلها هذه المرحلة. وهذا الاختيار في جوهره، هو اختيار للزمن الفاعل على الزمن المنفعل، واختيار لصناعة التاريخ بدلاً من انتظاره، واختيار للموت كتضحية من أجل الحياة بدلاً من الموت كقدر يُستقبل بصمت.

غسان كنفاني: المتفائل الذي فهم الماضي

غسان كنفاني كاتب عاش القضية الفلسطينية وكتب عنها ومات في سبيلها، وقد كان متفائلاً دوماً. لم يداخله الشك في أن النصر حليف الشعوب وقضاياه العادلة.

وهذا التفاؤل كما نستطيع أن نستنتج من خلال هذا الكتاب، لم يكن تفاؤلاً ساذجاً أو هروباً من الواقع، لقد كان تفاؤلاً نابعاً من فهم موضوعي للماضي، ومن وعي تاريخي جدلي يرى أن كل مرحلة من مراحل النضال، حتى لو كانت مؤلمة، تحمل في طياتها بذور المرحلة التالية.

سُئِل غسان في حديث أجري معه إذا كان متفائلاً، فأجاب: "أنا متفائل الآن لا لأني أطمئن للمستقبل، ولكن لأني أفهم الماضي فهماً موضوعياً. لولا نضال الأحزاب الوطنية لما كانت المقاومة، المقاومة خطوة متقدمة للنضال الماضي. أنا متفائل لأني على استعداد لأن أموت غداً دون أن أكون نادماً على شيء ودون أن أعتذر عن شيء في كل حياتي...".

هذه الكلمات تلخص جوهر رؤية غسان الزمنية: التفاؤل ليس توقعاً ساذجاً للمستقبل. هو ثمرة فهم عميق للماضي، واستعداد للتضحية في الحاضر من أجل مستقبل أفضل.

وهذا هو بالضبط ما جسده في أعماله الأدبية عبر المراحل الثلاث: من فهم المأساة في المرحلة الأولى، إلى نقدها في الثانية، إلى تجاوزها في الثالثة.

رسالة غسان الأخيرة: الموت لا يوقف الزمن

وأختم هذا الكتاب برسالة أخيرة قالها غسان كنفاني في آخر رسالة له وهو يصارع المرض: "المرض يشتد علي، وأشعر دائماً بالإعياء والتعب، ولكني لا أذهب للفراش، هناك شعور خفي بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبداً...".

هذه الرسالة، التي كتبها غسان وهو في أشد لحظات ضعفه الجسدي، تعكس إرادة زمنية هائلة: الإصرار على الاستمرار، ورفض الاستسلام، والوعي بأن القعود عن الفعل هو موت حقيقي، بينما الحركة والمقاومة هما الحياة.

وهذا هو بالضبط جوهر التطور الزمني في أدب غسان: الانتقال من زمن القعود (مرحلة الركود) إلى زمن الحركة (مرحلة الاحتجاج) إلى زمن الفعل والانبعاث (مرحلة الثورة).

فغسان حتى في موته، كان يصنع زمناً جديداً، زمناً يمتد في وعي الأجيال، ويلهمها للاستمرار في طريق النضال والتحرر. وهكذا يكون غسان كنفاني قد حقق من خلال أدبه وحياته واستشهاده، ما كان يبحث عنه طوال مشواره: تحويل الزمن من عدو إلى حليف، ومن سجن إلى أفق، ومن موت إلى حياة.

خلاصة نهائية

في نهاية هذه الرحلة، يمكنني القول إن غسان كنفاني قد أنجز في أدبه تحولاً زمنياً شاملاً يعكس تحول القضية الفلسطينية نفسها.

لقد بدأ بالزمن المأسور في قصصه الأولى، حيث كان الفلسطيني أسير ماضيه، يعيش الندم والحنين، ويتجرع مرارة الهزيمة بصمت واستسلام. ثم انتقل إلى زمن الاحتجاج في روايتيه الكبيرتين، حيث بدأ الفلسطيني يطرح الأسئلة وينتقد واقعه، ويبحث عن مخرج، وإن كان مخرجه خاطئاً في البداية (الهروب إلى الكويت) أو مشروطاً بكسر قيود الماضي (التخلص من الساعة).

وأخيراً وصل إلى زمن الثورة والانبعاث في أعماله الأخيرة، حيث أصبح الفلسطيني صانعاً لزمنه، متصلاً بماضيه استلهاماً لا حسرة، متطلعاً إلى مستقبله صنعاً لا حلماً، ومقدماً الموت تضحية في سبيل الحياة لا قدراً يُستقبل بصمت.

وهكذا يكون غسان كنفاني قد جسد في أدبه الرحلة الفلسطينية الكاملة: من النكبة إلى النكسة إلى الثورة، ومن الذل إلى الصمود إلى الكرامة، ومن الموت السلبي إلى الحياة الفاعلة. وهذه الرحلة في جوهرها، هي رحلة الزمن الفلسطيني نفسه، كما أراد له غسان أن يكون:

زمن الأمة التي تصنع تاريخها، ولا تنتظر أن يصنعه لها الآخرون.

التوصيات

انطلاقاً من النتائج في تتبع تطور المضامين الزمنية في أدب غسان كنفاني، وعملاً على فتح آفاق جديدة لدراسة هذا المبدع الكبير، أوصي بما يلي:

أولاً: توصيات متعلقة بدراسة الزمن في أدب غسان

1. دراسة الزمن في رواية "عائد إلى حيفا"

لم تتسع مساحة هذا الكتاب لتحليل رواية "عائد إلى حيفا" بالتفصيل، وهي رواية تختزن إمكانيات زمنية هائلة، خاصة في علاقتها بالذاكرة والهوية والعودة إلى المكان بعد الغياب. وأوصي بإجراء دراسة مستقلة تتناول البُنى الزمنية في هذه الرواية، مع التركيز على:

- تحليل علاقة الزمن بالهوية في رواية "عائد إلى حيفا".
- دراسة تقنيات الاسترجاع والاستباق في بناء ذاكرة الشخصيات.
- تحليل التحول الزمني في شخصية سعيد من الانكسار إلى الوعي الجديد.

آمل أن تتاح الفرصة لباحثين آخرين للتعمق في دراسة هذه الرواية التي تعتبر بحق واحدة من أهم الروايات الفلسطينية في القرن العشرين، وأن يتمكنوا من الكشف عن أبعادها الزمنية التي لم يتسع لها هذا الكتاب، وأن يسهم هذا الكتاب في إثراء المكتبة النقدية العربية بقراءات جديدة لهذا العمل الخالد.

2. دراسة الزمن في روايات غسان غير المكتملة

ترك غسان ثلاث روايات غير مكتملة هي "العاشق" و"برقوق نيسان" و"الأعمى والأطرش"، وهذه النصوص، رغم عدم اكتمالها، تحمل مؤشرات زمنية مهمة تستحق الدراسة والتحليل. وأوصي بتتبع هذه النصوص وتحليلها، مع محاولة فهم كيف كان غسان سيواصل تطوره الزمني لو أتمها.

آمل أن تجد هذه النصوص غير المكتملة من يدرسها بعناية، وأن يتمكن الباحثون من تجاوز مشكلة عدم اكتمالها بالتركيز على ما هو موجود منها، وأن يخرجوا بقراءات نقدية تسهم في فهم أعمق لتجربة غسان الزمنية، خاصة أن هذه الروايات تمثل المرحلة الأخيرة في مشواره الإبداعي وقد تحمل مؤشرات على تطور جديد في رؤيته الزمنية.

3. دراسة مقارنة بين الزمن عند غسان وعند كتاب فلسطينيين آخرين

أوصي بإجراء دراسة مقارنة بين البنى الزمنية في أدب غسان كنفاني وأدب كتاب فلسطينيين آخرين مثل:

- إميل حبيبي (خاصة "المتشائل" و"الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل").
- جبرا إبراهيم جبرا (خاصة "السفينة" و"صيادون في شارع ضيق").
- محمود شقير (خاصة "الحجر").
- سحر خليفة (خاصة "الصبار").

للتعرف على خصوصية كل كاتب في تعامله مع الزمن، وما يميز رؤية غسان الزمنية عن غيره من كتاب فلسطين.

آمل أن يسهم هذا الكتاب بالمقارنة في رسم خريطة زمنية للأدب الفلسطيني، تكشف عن تنوع الرؤى الزمنية لدى كتاب فلسطين، وتبين مكانة غسان كنفاني بينهم، وكيف أثرت تجربته الزمنية في الأجيال اللاحقة من الكتاب الفلسطينيين، وأن تسهم هذه المقارنة في تجاوز القراءات المنعزلة لكل كاتب نحو رؤية شاملة لتطور الزمن في الأدب الفلسطيني ككل.

4. دراسة تطور الرمز الزمني عند غسان

يمكن تخصيص دراسة مستقلة لتتبع تطور الرموز الزمنية في أدب غسان، من الليل والرسالة في المرحلة الأولى، إلى الخزان والساعة في المرحلة الثانية، إلى الدالية والمفتاح في المرحلة الثالثة، مع تحليل دلالات كل رمز وكيفية تطورها عبر المراحل.

آمل أن يتمكن الدارسون من كشف البنية الرمزية المتكاملة التي بناها غسان حول مفهوم الزمن، وأن يوضحوا كيف أن هذه الرموز لم تكن مجرد أدوات فنية، بل كانت تعبيراً عن رؤية متكاملة لتطور القضية الفلسطينية، وأن يسهم هذا الكتاب في تقديم قراءة جديدة لأدب غسان من زاوية الرمزية الزمنية التي لم تحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات السابقة.

ثانياً: توصيات منهجية

5. تطبيق مناهج نقدية أخرى

أوصي بتطبيق مناهج نقدية أخرى على أدب غسان، مثل:

- المنهج التفكيكي: لكشف التناقضات الداخلية في النصوص.
- منهج تحليل الخطاب: لتحليل بنية الخطاب الزمني.
- النقد الثقافي: لربط أدب غسان بالسياق الثقافي الأوسع.

خاصة فيما يتعلق بتشكل الهوية والذاكرة الجمعية.

آمل أن تفتح هذه المناهج آفاقاً جديدة في قراءة أدب غسان، وأن تكشف عن أبعاد خفية لم يتسع لها الكتاب في المنهجية التقليدية، وأن تسهم في تجديد الاهتمام بأدب غسان من خلال تقديم قراءات معاصرة تستخدم أدوات نقدية حديثة، مما يضمن استمرارية حضور غسان في المشهد النقدي العربي.

6. دراسة الزمن في ضوء نظريات ما بعد الكولونيالية

يمكن دراسة أدب غسان في ضوء نظريات ما بعد "الكولونيالية" خاصة فيما يتعلق بعلاقة الزمن بالهوية والمقاومة، وكيف يستعيد الفلسطيني زمنه المسلوب عبر الكتابة، وكيف يفكك غسان الخطاب الاستعماري الزمني الذي يحاول فرض تصوراته على تاريخ فلسطين.

آمل أن تسهم هذه الدراسة في وضع أدب غسان في سياقه العالمي، وأن تربط تجربته بتجارب كتاب ما بعد الكولونيالية في العالم، مثل كتابات فرانز فانون وإدوارد سعيد وغازي القصيبي، وأن تبرز كيف أن غسان، من خلال تعامله مع الزمن، كان يمارس نوعاً من المقاومة الثقافية للخطاب الاستعماري، وأن تسهم هذه القراءة في تقديم غسان للقارئ العالمي كصوت فلسطيني متميز في أدب المقاومة العالمي.

ثالثاً: توصيات متعلقة بالسياق التاريخي والسياسي

7. دراسة أثر هزيمة 1967 في تطور الرؤية الزمنية عند غسان

يمكن تخصيص دراسة لتحليل أثر هزيمة حزيران 1967 في تحول الرؤية الزمنية عند غسان من الاحتجاج إلى الثورة، وكيف أسهمت هذه الهزيمة في بلورة وعيه التاريخي الجدلي، وما هي التحولات التي طرأت على بنيته الزمنية بعد هذه الهزيمة.

آمل أن تسهم هذه الدراسة في الكشف عن لحظة التحول الكبرى في أدب غسان، وأن تبرز كيف أن الهزيمة التي كسرت كثيرين كانت بالنسبة لغسان دافعاً لانبعاث جديد، وأن توضح كيف أن غسان استطاع تحويل النكسة إلى نكبة مضادة، وكيف جعل من زمن الهزيمة زمن ولادة جديدة، وهي رؤية تجعل من تجربة غسان نموذجاً فريداً في التعامل مع الهزائم التاريخية.

رابعاً: توصيات متعلقة بتدريس أدب غسان

إدراج تحليل الزمن في مناهج تدريس أدب غسان

أوصي بتضمين تحليل البنى الزمنية في مناهج تدريس أدب غسان في الجامعات والمدارس، باعتبارها مفتاحاً أساسياً لفهم تطور رؤيته الفكرية والنضالية، وأن يتم التركيز على تطور الزمن عبر المراحل الثلاث في المناهج الدراسية.

آمل أن يسهم إدراج تحليل الزمن في المناهج في تقديم غسان للطلاب بشكل أعمق، وأن يساعدهم على فهم تطور القضية الفلسطينية من خلال تطور البنى الزمنية في أدبه، وأن يفتح أمامهم آفاقاً جديدة لقراءة الأدب الفلسطيني، وأن يرسخ في أذهانهم أن أدب غسان ليس مجرد وثائق تاريخية، بل هو نسيج فني متكامل يستحق الدراسة من جميع جوانبه.

خامساً: توصيات عامة

جمع الدراسات النقدية عن غسان في موسوعة

أوصي بالعمل على جمع الدراسات النقدية العربية والأجنبية عن غسان كنفاني في موسوعة شاملة، لتكون مرجعاً للباحثين والدارسين، ولتسهيل الوصول إلى الجهود النقدية المتناثرة في مختلف الدوريات والكتب، مع تصنيفها حسب الموضوعات (الزمن، المكان، الشخصية، الرمز، البنية السردية، إلخ).

آمل أن تسهم هذه الموسوعة في تقديم صورة شاملة للجهود النقدية حول غسان، وأن تكشف عن تطور القراءات النقدية لأدبه عبر العقود، وأن تسهل على الباحثين الجدد الوصول إلى ما سبق من دراسات، مما يوفر عليهم الوقت والجهد ويمكنهم من البناء على ما سبق بدلاً من إعادة اكتشاف ما هو معروف، وأن تسهم هذه الموسوعة في ترسيخ مكانة غسان كنفاني كأحد أهم كتاب فلسطين والعرب في القرن العشرين.

وتأتي هذه التوصيات إيماناً من الباحث بأن أدب غسان كنفاني لا يزال يحمل الكثير مما يستحق الدراسة والتحليل، وأن كل جيل يقرأ غسان يكتشف فيه ما لم يكتشفه الجيل السابق، وأن استمرارية دراسة أدبه هي استمرارية للحضور الفلسطيني في المشهد الثقافي العالمي، واستمرارية للنضال ضد النسيان والتهميش.

والله الموفق إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

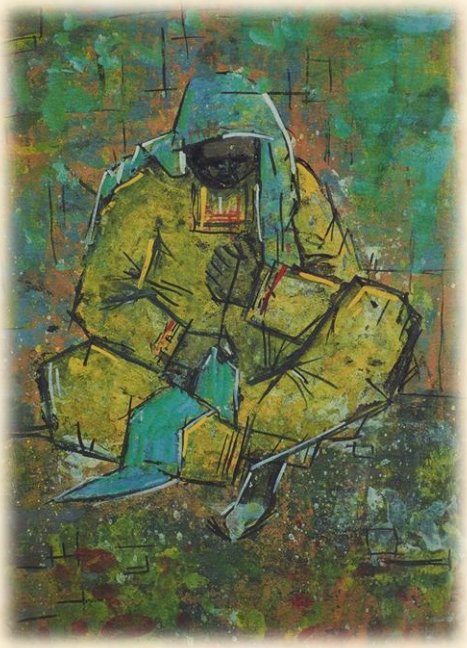

الملحق:

نصوص مختارة من أدب غسان كنفاني

يضم هذا الملحق مجموعة من النصوص المختارة من روايات وقصص غسان كنفاني، مرتبة حسب المراحل الزمنية التي وردت في الكتاب. وقد جاءت هذه النصوص لتكون مرجعاً للقارئ، ولتؤكد بالشاهد النصي ما تم تحليله في الفصول، ولتتيح للقارئ فرصة الاطلاع المباشر على لغة غسان وأسلوبه الفريد في التعبير عن تحولات الزمن الفلسطيني.

أولاً: من قصص المرحلة الأولى (الركود والاستسلام)

1. من قصة "أرض البرتقال الحزين"

"عندما خرجنا من يافا إلى عكا لم يكن في ذلك أية مأساة.. كنا كمن يخرج كل عام ليمضي أيام العيد في مدينة غير مدينته. ومرت أيامنا في عكا مروراً عادياً لا غرابة فيه، بل ربما كنت لصغري وقتذاك أستمتع بتلك الأيام لأنها حالت دوني ودون الذهاب للمدرسة.. مهما يكن، ففي ليلة الهجوم الكبير على عكا بدأت تتوضح الصورة أكثر فأكثر ...

ومضت تلك الليلة قاسية مرّة بين وجوم الرجال، وبين أدعية النسوة ... لقد كنا أنا وأنت ومن في جيلنا، صغاراً على أن نفهم ماذا تعني الحكاية من أولها إلى آخرها ...

ولكن في تلك الليلة بدأت الخيوط تتوضح وفي الصباح، ساعة انسحب اليهود متوعدين مزبدين ...

كانت سيارة شحن كبيرة تقف في باب دارنا.. وكانت مجموعة بسيطة من أشياء النوم تقذف إليها من هنا وهناك بحركات سريعة محمومة ...

كنت أقف متكئاً بظهري على حائط البيت العتيق عندما رأيت أمك تصعد إلى السيارة، ثم خالتك، ثم الصغار، وأخذ أبوك يقذف بك وبأخوتك إلى السيارة، وفوق الأمتعة، ثم انتشلني من زاويتي ورفعني فوق رأسه إلى القفص الحديد في سقف غرفة السائق حيث وجدت أخي رياض جالساً بهدوء ... وقبل أن أثبت نفسي في وضع ملائم، كانت السيارة قد تحركت ... وكانت عكا الحبيبة تختفي شيئاً فشيئاً في منعرجات الطرق الصاعدة إلى رأس الناقورة ...

كان الجو غائماً بعض الشيء، وإحساس بارد يفرض نفسه على جسدي، كان رياض جالساً بهدوء شديد، رافعاً ساقيه إلى ما فوق حافة القفص، ومتكئاً بظهره على الأمتعة محدقاً في السماء.. وكنت أنا جالساً بصمت، واضعاً ذقني بين ركبتي طاوياً فوقهما ذراعي.. وحقول البرتقال تتوالى على الطريق.. وشعور بالخوف يتآكلنا جميعاً.. والسيارة تصعد لاهثة فوق التراب الندي ... وطلقات بعيدة كأنها تحية الوداع ...

وعندما بدأت رأس الناقورة تلوح من بعيد، غائمة في الأفق الأزرق وقفت السيارة ... ونزلت النسوة من بين الأمتعة وتوجهن إلى فلاح كان يجلس القرفصاء واضعاً سلة برتقال أمامه مباشرة.. وحملن البرتقال ... ووصلنا صوت بكائهن ... وبدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب ... وأن هذه الحبات الكبيرة النظيفة هي شيء عزيز علينا ... كانت النساء قد اشترين برتقالات حملنها معهن إلى السيارة، ونزل أبوك من جانب السائق، ومدّ كفه فحمل برتقالة منها.. أخذ ينظر إليها بصمت.. ثم انفجر يبكي كطفل بائس...

في رأس الناقورة.. وقفت سيارتنا بجانب سيارات كثيرة... وبدأ الرجال يسلمون أسلحتهم إلى رجال الشرطة الواقفين لهذا الغرض... وعندما أتى دورنا، ورأيت البنادق والرشاشات ملقاة على الطاولة... ورأيت صف السيارات الكبيرة يدخل لبنان طاوياً معارج طرقاتها ممعناً في البعد عن أرض البرتقال... أخذت أنا الآخر، أبكي بنشيج حاد... كانت أمك ما زالت تنظر إلى البرتقالة بصمت...

وكانت تلمع في عيني أبيك كل أشجار البرتقال التي تركها لليهود... كل أشجار البرتقال النظيف التي اشتراها شجرة شجرة، كلها كانت ترتسم في وجهه... وترتسم لمّاعة في دموع لم يتمالكها أمام ضابط المخفر...

وعندما وصلنا صيدا، في العصر، صرنا لاجئين...

2. من قصة "شيء لا يذهب"

"لم أكن قط استحق ليلى... كانت أحسن مني بكثير، كنت جباناً أخاف الموت. ورفضت أن أحمل سلاحاً كي أدافع عن حيفا... كنت في رأس الناقورة عندما قالوا إن حيفا سقطت".

وتتذكر كلماتها له قبل أن يرحل: "باستطاعتك أن تغادر حيفا وأن تهرب من حيفا. ولكنك في يوم سيأتي لا بد أن تصحو. وتكتشف وتندم".

"وبدا لي في لحظة أن ماضي شيء مخجل في الحقيقة... ثماني سنوات أخبر ذكرى ليلى كأنها إنسانة ضيعتها فقط لأذكرها".

"لم تستطع ليلى أن تغيرني، شعرت هذا بوضوح الآن... إنسان لا فائدة منه... هذا كل شيء... باقة ورد على ضريح إنسان ميت... شيء يذهب... لقد قالت لهم أنها تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب".

3. من قصة "منتصف أيار"

"لست أدري لمن سوف أرسل هذه الرسالة، لقد كان عهدي لك أن أحمل إلى قبرك في كل منتصف أيار بعض أزهار الحنون... لقد مضت اثنتا عشرة سنة وأعتقد أنك بعدت كثيراً..."

"والسؤال الآن لماذا أكتب لك...؟ ألم يكن الأجدر بي وقد فشلت في حمل أزهار الحنون إلى قبرك أن أستمر في الصمت الذي بدأ منذ اثنتي عشرة سنة؟"

"والسؤال الذي يجأر في رأسي... هو: لماذا أذكرك الآن؟ ... وأكتب لك؟ أما كان الأجدر أن أستمر في صمتي؟ إن منتصف أيار يضغط على صدري وكأنه قدر مجنون، أخطأت ذات مرة... فقتلتك بدل أن تقتلني".

4. من قصة "الأخضر والأحمر"

"كبرت أيها الأسود الصغير! صار عمرك أربع عشرة سنة، أربعة عشر أيار من فوقك، جدول الدم سقى أربعة عشر ربيعاً، أيها الأسود الصغير وأنت ماض كالدود تبحث عن ماذا؟؟ أي خلاص ترتجي؟"

"أيها الأسود الصغير التعس لماذا لا تموت؟" ثم "أيها الذي يعيش تحت أكداس الأقدام.... اكبر.... اكبر..."

"لا تمت قبل أن تكون نداً... لا تمت".

ثانياً: من روايات المرحلة الثانية (الاحتجاج والاستنكار)

1. من رواية "رجال في الشمس"

وصف الصحراء والذاكرة:

"الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض، وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون."

الذاكرة والحنين عند أبي قيس:

"كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام، وقد اغتسلت بالماء البارد... الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطباً... الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً."

زمن الانتظار والركود:

"في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر... لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها... في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير... ماذا تراك كنت تنتظر؟"

الوصف الرمزي للزمن:

"كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وآمالهم وبؤسهم ويأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم. كما لو أنها آخذة في نطح باب جبار لقدر جديد مجهول."

السؤال المصيري:

"لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟"

2. من رواية "ما تبقى لكم"

رمز الساعة – النعش:

"تدق... تدق... داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير..."

زمن الغربة والصمت:

"إن الصمت لا يكون بلا صوت وإلا لما كان ولما صار بالوسع أن يحس على هذه الصورة الفريدة، المفعمة بالغربة والوحشة والمجهول."

الحساب الزمني:

"ما تبقى لها. ما تبقى لكم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الخسارة. حساب الموت. ما تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبّارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه، كله مؤجل كله مؤجل."

مواجهة الصحراء:

"مرر شفتيه فوق التراب الدافئ: ليس بمقدوري أن أكرهك، ولكن هل سأحبك؟ أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة... إنني أختار حبك، إنني مجبر على اختيار حبك، ليس ثمة من تبقى لي غيرك."

ثالثاً: من روايات المرحلة الثالثة (الانبعاث والثورة)

1. من رواية "أم سعد"

دالية أم سعد:

"قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك على الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً."

زمن الحبس:

"الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس، وبيتك حبس، والجريدة حبس، والراديو حبس، والباص والشارع وعيون الناس.. أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس، والمختار حبس... تتكلم أنت على الحبوس؟ طول عمرك محبوس."

الأم والمقاومة:

"هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ."

انتظار سعد:

"كل مساء أقول يا رب! وكل صباح أقول يا رب!. وها قد مرت 20 سنة، وإذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟"

المنفي والمفردات:

"كانت أم سعد علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض."

البرعم الأخير:

"برعمت الدالية يا ابن العم... برعمت."

2. من رواية "عائد إلى حيفا"

سؤال الوطن:

"سألت: ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة. أجل ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على الجدار؟ المزلاج النحاسي؟ شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ خلدون؟ أوهامنا عنه؟"

الوطن بين الماضي والمستقبل:

"لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط... أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل، وهكذا كان الافتراق، وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح. عشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، وهم إنما ينظرون للمستقبل، ولذلك هم يصححون أخطاءنا، وأخطاء العالم كله..."

تعريف الوطن:

"أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله."

الإنسان قضية:

"إن الإنسان في نهاية الأمر قضية."

3. من مجموعة "عن الرجال والبنادق"

المفتاح الذي يشبه الفأس:

"كنت منصرفاً بكليتي للسماع – الراديو – حين سقط أحد المسمارين من تحت المفتاح، فسقط جسد المفتاح، وأخذ ينوس جيئة وذهاباً على المسمار المثبت في حلقته... صاح حسان مشيراً بإصبعه إلى المفتاح:

– انظر، إنه يشبه الفأس!!!"

كيان الأرض والسلاح:

"إن الأب، وهو فلاح، والشجرة المستند إليها، والبندقية التي في يده، يصبحون شيئاً واحداً بل كياناً عضوياً."

رابعاً: نصوص متفرقة من كتابات غسان

من أقواله عن الجماهير والتعلم:

"إننا نتعلم من الجماهير، ونعلمها. ومع ذلك فإنه يبدو لي يقيناً أننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير، المعلم الحقيقي الدائم، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب."

من أقواله عن فلسطين كرمز إنساني:

"تطور أسلوبي الكتابي في الفترة ما بين عامي 1956 و1962، حيث كنت أكتب عن فلسطين كقضية قائمة بذاتها، ثم تبين لي أني أصبحت أرى في فلسطين رمزاً إنسانياً متكاملاً."

ملاحظة للقارئ

هذه النصوص هي مقتطفات من أعمال غسان كنفاني، وقد تم اختيارها لتكون شواهد على ما ورد في البحث. وهي تمثل جزءاً يسيراً من إنتاجه الأدبي الغزير، وتدعو القارئ إلى الرجوع إلى الأعمال الكاملة للاطلاع على السياق الكامل وللاستمتاع بتجربة قراءة غسان كنفاني بشمولية أكبر.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأساسية (أعمال غسان كنفاني)

1. كنفاني، غسان. (1963). **رجال في الشمس**. دار الطليعة، بيروت.
2. كنفاني، غسان. (1987). **الآثار الكاملة: القصص القصيرة** (الطبعة الثالثة). مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
3. كنفاني، غسان. (1994). **الآثار الكاملة: الروايات** (المجلد الأول، الطبعة الرابعة). مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

ثانياً: الكتب والدراسات النقدية

1. إبراهيم، داود. (د.ت). **غسان كنفاني مناضلاً ومفكراً**. وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، القدس.
2. ابن منظور، محمد بن مكرم. (1990). **لسان العرب** (المجلد 13). دار صادر، بيروت.
3. أبو طير، أحمد. (1993). الهم الجماهيري في أدب غسان كنفاني. **عرب تايمز**.
4. الأسطة، عادل. (2000). **الشخصية الفلسطينية في الرواية الفلسطينية**. دار الشروق، عمان.
5. باختين، ميخائيل. (1987). **الخطاب الروائي** (م. برادة وآخرون، مترجمون). دار الحداثة، بيروت.
6. بنورة، جمال. (1982). دراسة في أدب غسان كنفاني وفكره. **الفجر الأدبي**، الحلقة الثانية، العدد (20)، أيار.
7. بنورة، جمال. (1987). **دراسات أدبية**. دار الأسوار، عكا.
8. بيومي، نهى. (1992، تموز–آب). العناء في الفن الروائي، موقف وخيار، قراءة في روايات غسان كنفاني. **مجلة الآداب**، العدد (7–8)، ص 64–65.
9. جبرا، جبرا إبراهيم. (1983). **السفينة**. دار الآداب، بيروت.
10. جبرا، جبرا إبراهيم. (1985). **صيادون في شارع ضيق**. دار الآداب، بيروت.
11. جينيت، جيرار. (1997). **خطاب الحكاية: بحث في المنهج** (م. معتصم وآخرون، مترجمون). المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
12. حبيبي، إميل. (1974). **الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل**. دار ابن رشد، بيروت.
13. حبيبي، إميل. (1991). **المتشائل**. دار الآداب، بيروت.
14. خوري، إلياس. (2002، 18 يوليو). **مجلة الحوار المتمدن**، العدد (193).
15. خليفة، سحر. (1980). **الصبار**. دار الآداب، بيروت.
16. دحبور، أحمد. (د.ت). **مجلة رؤية**. السلطة الوطنية الفلسطينية.
17. زين الدين، أمل، وباسيل، جوزيف. (1980). **تطور الوعي في نماذج قصصية فلسطينية** (الطبعة الأولى). دار الحداثة، بيروت.

18. شقير، محمود. (1984). **الحجر**. دار الفتى العربي، بيروت.

19. عاشور، رضوى. (1981). **الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني** (الطبعة الثانية). دار الأدب، بيروت.

20. عبد الهادي، فيحاء. (1990). **غسان كنفاني: الرواية والقصة القصيرة**. الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، القدس.

21. عودة، علي محمد. (1997). **الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية** (الطبعة الثانية). (د.ن).

22. القاسم، أفنان. (1978). **غسان كنفاني: البيئة الروائية لمسار الشعب الفلسطيني من المنفى إلى البطل**. وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية.

23. الناصري، سيد حامد. (2005). **زمن الرواية: دراسة في تقنيات السرد الزمني**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

24. النقيب، فضل. (د.ت). **رجل تحت الشمس: عالم غسان كنفاني**. دار الأسوار، عكا.

25. استانبولي، حاتم. (2010). **الزمان والمكان في أدب غسان كنفاني**. دار الكتب الوطنية، أبو ظبي.

26. وادي، فاروق. (1985). **ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية** (الطبعة الثانية). الأسوار للطباعة والنشر، عكا.

27. ياغي، عبد الرحمن. (1987). **مع غسان كنفاني في حياته وقصصه ورواياته** (الطبعة الثانية). الأردن.

ثالثاً: الدراسات الأكاديمية والرسائل الجامعية

28. المدهون، راسم. (2006). **الرواية الفلسطينية: نشأتها وتطورها**. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة بيرزيت، فلسطين.

رابعاً: الإطار النظري (مصادر إضافية)

29. باختين، ميخائيل. (1987). **الخطاب الروائي**. ترجمة: محمد برادة وآخرون. دار الحداثة، بيروت.

30. جينيت، جيرار. (1997). **خطاب الحكاية: بحث في المنهج**. ترجمة: محمد معتصم وآخرون. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

31. ريكور، بول. (2001). **الزمن والسرد** (الأجزاء 1–3). ترجمة: سعيد الغانمي وآخرون. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

32. ريمون–كينان، شلوميث. (1987). **السرد الروائي: نظرية وتطبيق**. ترجمة: محمد الجرطي وآخرون. دار البيضاء للنشر والتوزيع.

33. الناصري، سيد حامد. (2005). **زمن الرواية: دراسة في تقنيات السرد الزمني**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

خامساً: المواقع الإلكترونية

34. أبو طير، أحمد. (1993). الهم الجماهيري في أدب غسان كنفاني. **عرب تايمز**. تاريخ الاسترداد: 2026. (http://arab.www.time.com) [arab.www.time.com]

35. مركز العودة الفلسطيني. (د.ت). **الموقع الرسمي**. تاريخ الاسترداد: 2026. [www.prc.org.uk] (http://www.prc.org.uk)

36. مجلة **الأهرام العربي**. (2004). العدد (123).

37. موقع الحوار المتمدن. (2002). تاريخ الاسترداد: 2026. [www.arabi.ahram.org.eg/arabi] (http://www.arabi.ahram.org.eg/arabi)

38. موقع نزوى الثقافي. (د.ت). تاريخ الاسترداد: 2026. [www.nizwa.com/volume15/ph] (http://www.nizwa.com/volume15/ph)

سادساً: محاضرات وندوات (مصادر غير منشورة)

39. العطشان، محمود. (د.ت). **محاضرات ألقاها على طلبته في مساق حلقة بحث** (رقم 438). جامعة القدس المفتوحة، فلسطين.

سابعاً: مقولات مأثورة (أقوال غسان كنفاني المتناقلة في الدراسات النقدية)

40. غسان كنفاني. (مقولات مأثورة وردت في الدراسات النقدية).